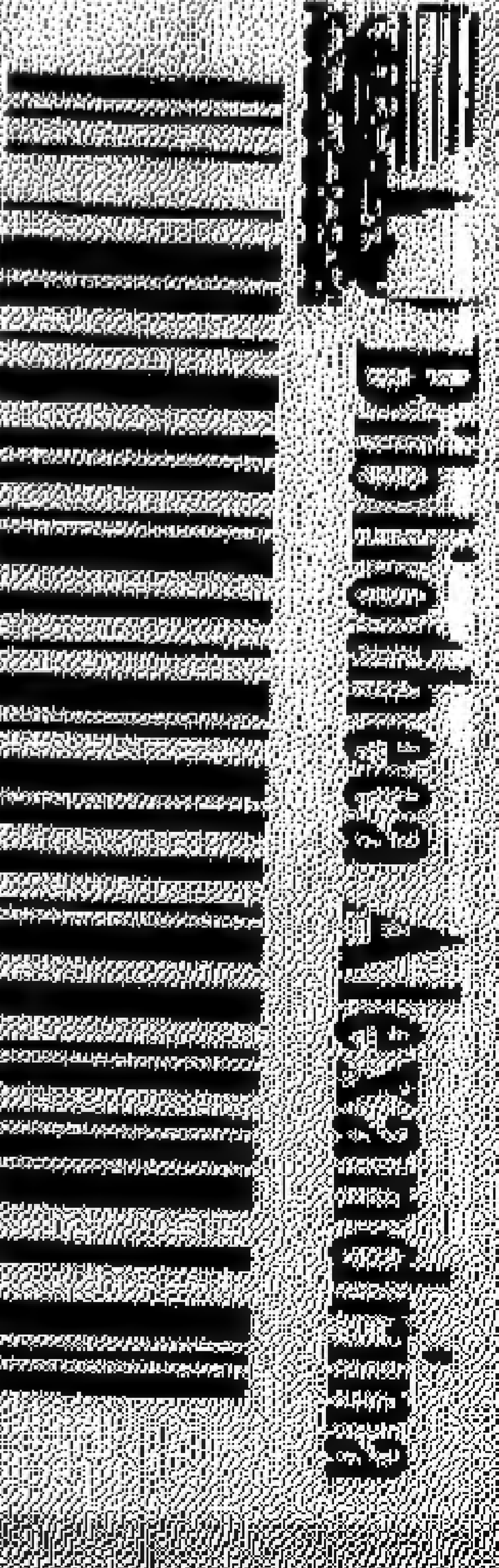
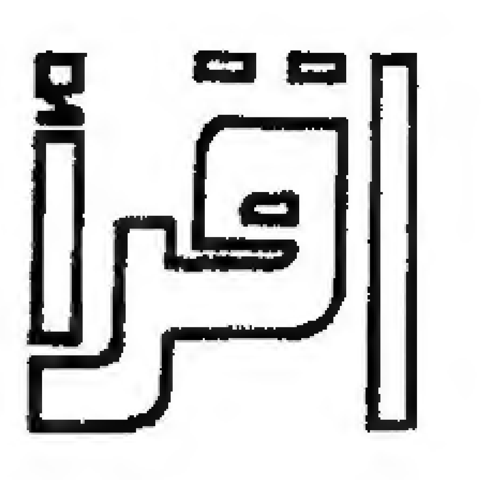
اقرأ

دكتور محمد فتحى عوض الله

لة إلى الاسكندرية



دار المعارف



[٥٥٣]

رحلة إلى اسكتلندة

دكتور محمد فتحي عوض الله

رحلة إلى الإسكندرية



دار المعارف

دكتور محمد فتحي عوض الله:

- عضو المساحة الچيولوچية المصرية وخبير باليونسكو العربي سابقا.
- أستاذ ورئيس قسم الچيولوچيا بعلوم بنها.
- خمسون بحثًا علميًا منشورًا بالانجليزية بالمجلات العلمية المصرية والعالمية.
- اثنان وعشرون كتابًا منشورة بمصر والبلاد العربية.
- حاصل على جائزة الدولة فى البحوث البيئية.

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

عزيزى القارئ..

اسكتلندة عرفت قديمًا باسم «كالدونيا» وهو اسم رومانى، وهذه رحلة قمت بها إلى تلك البلاد، فهلاّ سمحت لى برواية خواطرى عنها بصوت تسمعه، لعلك واجد فيها ما يشد انتباهك أو يفيدك.. أو يشكل إثراء للمعرفة عندك.. وهذا ما أرجوه، وأحمد الله عليه.

ودائمًا.. رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير..

دكتور محمد فتحى عوض الله

الإقلاع

اليوم: الاثنين..

التاريخ: التاسع من شهر سبتمبر عام ١٩٨٥.

الغرض: حضور المؤتمر الجيولوجى الأفريقى الثالث عشر بمدينة سانت أندروز ببلاد إيقوسيا أو اسكوتلاندة، والذى سيعقد بجامعتها فى الفترة من ١٠ – ١٣ من هذا الشهر، تعقبه رحلة جيولوجية إلى المناطق الشمالية من تلك البلاد عند بحر الشمال.

الطريق: القاهرة – فرانكفورت – لندن – أدنبرة – سانت اندروز.. ثم لندن – القاهرة..

وفى الساعة الثانية عشر صباحًا، غُلِّقَت أبواب الطائرة الضخمة لشركتنا العملاقة، شركة مصرَ للطيران، ودارت المحركات هادرة، فى حين راحت الطائرة تخطو الهوينى فى حركة إنسيابية رقيقة لم نكد نستشعرها، وبينما نحن نتطلع إلى أبنية مطار القاهرة وهى تمر أمام عيوننا من كوة الطائرة الزجاجية، التقطت الأسماع رنين صفارة

رقيقة موسيقية الصوت، تعنى عند الركاب للطائرات الا
والتطلع إلى لوحة تعلو مقاعدهم ليقرءوا عليها تعليمات مضيئة ي
طاقم الطائرة أن يوجه أنظارهم إليها.. وقرأت: اربطوا أح
المقاعد.. امتنعوا عن التدخين، وذاك أمر وارد، فالطائرة آخذة
التحرك على أرض المطار فى اتجاهها إلى أحد الممرات، وباتجاه ن
محددة .تقف عندها قليلاً، كأنما تلتقط الأنفاس، أو تزيد من استعد
للرحيل، والانطلاق من بعد، بأقصى سرعة أرضية ممكنة تسلمها
أحضان الهواء، وبين يدى الرياح تندفع من تحتها فترفعها
الأرض، لتمكنها من صهوة الريح..

الصمت يعترى الجميع، الكل جلوس فى المقاعد مشدودة ح
أوساطهم الأحزمة، الأنفاس تكاد تُحس من فرط السكون المد
على كل من فى الطائرة، المضيفون والمضيفات فى الطائرة لز
أماكنهم كذلك فى مقاعد مخصصة لهم بجانب الأبواب أو فى مؤ
ومقدمة الطائرة.. الطائرة مندفعة بأقصى قوة تعبر عنها تلك الهز
المتلاحقة الصادرة عن احتكاك عجلات الطائرة بالأرض.. ث
ها هى مقدمة الطائرة ترتفع ويخف صوت الاحتكاك، ثم يتلاش
تمامًا، فقد حملتها أيدى الهواء الحانية، ومازالت المقدمة ترتفع وترت
والطائرة تشق العنان كسهم يعرف طريقه، مندفعًا إليه.. وما
إلا لحظات قليلة، حتى استوت الطائرة على متن الرياح، وشعر
نحن فى الطائرة بذلك الاستواء.. وأكدته لنا تلك النغمات الموسيق
التى تلفتنا لنقرأ ما على اللوحة المضيئة فى أعلى المقعد.. ونظرنا فو
اللوحة خالية من أية تعليمات، لقد ذهب الحظر المضروب ع

المدخنين ألا يشعلوا لفافاتهم، ولهم الآن الخيار فى أن يفعلوا ما يحلو لهم، ثم إن للجميع أن يفكوا أحزمتهم وللمضيفين والمضيفات أن يتحركوا، ما شاءوا..

ها هى الطائرة ترتفع من أسر خطًا ربطتها بالأرض إلى أجنحة تحاكى بها الطير فى السماء، بل هى تفوقه سرعة وقوة. وسبحان من علم الإنسان ما لم يكن يعلم. لقد انفلتت الطائرة، وإلى حين من جاذبية الأرض، تلك القوة التثاقلية العجيبة التى تربط كل ما على الأرض بأمه الأرض، ولابد لكى يبقى جسم مًا بالهواء من قوة تدفعه، مقاومة القوة تلك الجاذبية الأرضية، وإلى حين، طالما كان الجسم فى نطاق الغلاف الجوى، وفى نطاق الجاذبية الأرضية، وهى، على أى حال، قوة محدودة تتناسب مع بُعد المسافة عن الأرض، فلو أن القوة الدافعة المقاومة للجاذبية كانت من الكبر بحيث تدفع الجسم إلى خارج نطاق الجاذبية الأرضية لبقى الجسم هناك لا يسقط وإلى ما شاء الله.. وهو يبقى فى مكانه أيضًا بفعل جاذبية أخرى غير الجاذبية الأرضية.. فالثابت والأيدّ، أن كل ما فى الكون يتحرك، وكذلك التجاذب يشمل هذا الوجود. فالأرض تدور حول الشمس كما يدور المقلاع حول الأصبع، وهى تدور بسرعة معينة، وفى اتجاه معين، وهى سرعة، وهو اتجاه باقيين منذ كانا وإلى أن يشاء الله، وإنما يحكمهما قوة تجذب بها الشمس الأرض، وقوة تجذب بها الأرض الشمس. ولو انفصمت الجاذبية بينهما، كما لو انقطع حبل المقلاع، لذهب كل بددًا.

كل الأجرام فى الكون تجذب، وتنجذب، وكل الأشياء على الأرض تجذب وتنجذب.. ويشمل العالم كله دوران لا توقف له، تحكمه تلك الجاذبية، ولقد أحس الإنسان بفطرته ذاك الدوران، أحسه فى مراحل تطوره المختلفة منذ الحضارات الأولى للبشرية، الفرعونية والبابلية واليونانية والهندوسية، وعبر كلوديوس بطليموس الإسكندرى حوالى عام ١٥٠ قبل الميلاد عن تصوره للكون المستدير الشكل، تقع الأرض فى مركزه، وتدور من حولها الشمس والقمر، وكل الكواكب السيارة معلقة فى أفلاكها حول الأرض.

وجاء كوبرنيكوس البولندى، وجوردانو برونو خليفته محاولين تغيير هذا الرأى القائل بمركزية الأرض، فلم يفلتا من عقاب الكنيسة آنذاك. وأدرك العرب بفطرتهم وحسهم وعلمهم الموسوعى الدوران فى الكون حتى قال قائلهم أبو الريحان البيرونى يؤيد الدوران على نحو مًا، وتبعه أبو سعيد بن عبد الجليل السنجرى، ثم ابن شبل البغدادى الذى نظم الرأى شعرًا، على عادة العرب فى ذاك الزمان، فكتب يقول:

بربك أيُّها الفلك المدار ... أقصد ذا المسير أم اضطرار
مدارك قل لنا، فى أى شىء ... ففى أفهامنا منك انبهار
وفيك نرى الفضاء. وهل فضاء ... سوى هذا الفضاء، به تدار؟
وموج ذا المجرة، أم فرند ... على لجج الدروع له أوار؟
وفيك الشمس رافعة شعاعًا ... بأجنحة، قوادمها قصار
وشهب ذى الخواطف، أم ذبال ... عليها المرخ، يقدح والعفار
وترصيعٌ نجومك، أم حباب ... تؤلف بينها اللُّجج الغِزَارُ

ولقد تطورت المعرفة البشرية سريعًا بعد ذلك لأمور الجاذبية والتجاذب والدوران فى الكون، مع مقدم الحضارة الآنية، ولا يمكن لمتحدثٍ عن الجاذبية والتجاذب أن يخوض غمار ذاك الأمر دون أن يذكر علماء كبار أسهموا فى توضيح ذلك وتثبيته فى العقول. فبعد كوبر نيكوس (١٤٧٣-١٥٤٣م) الذى وضع بعلمه الشمس حيث يجب أن توضع فى النظام الشمسى، وأنزل الأرض من مركزها، وجعل منها تابعًا يدور حول الشمس، جاء عالم ثان عظيم هو تيكوبراها الدنمركى (١٥٤٦ - ١٦٠١ م) وقدم لهذه المسيرة خبرة خمسة وثلاثين عامًا من الرصد الفلكى الذى فاق من سبقوه دقة وإتقانًا، فأثرى المعرفة البشرية حول الجاذبية والتجاذب والدوران وليسلم قياد البحث من بعده للعالم الألمانى الكبير كِبْلَر (١٥٧١ - ١٦٣٠ م). وقد خرج كبلر هذا بالقوانين الثلاثة الشهيرة التى تحمل اسمه، والتى بنيت عليها نظرية الكواكب السيارة، كما نعرفها اليوم. ومع مسيرة العلماء العظام فى معرفة سر الجاذبية، نتقابل مع جاليليو (١٥٦٤ - ١٦٤٢) أول من استخدم التليسكوب، والذى حاول أن يرسى علم الحركة والدوران فى الكون على أسس ثابتة. وجاليليو هذا، هو الذى استلفت نظره سقوط الأجسام على الأرض فراح يدرس ذلك السقوط وكيفيته. وخرج على الناس بأن الجسم الساقط إن قطع فى أول ثانية من سقوطه كذا مترًا، فهو قاطع فى الثانية التالية ثلاثة أمثال تلك المسافة، وفى الثانية الثالثة، خمسة أمثال، وفى الرابعة سبعة أمثال، وهكذا.. أى أن المسافات تتناسب فى الثوانى المتتابعة، كتناسب الأرقام ١ : ٣: ٥ : ٧...

ويأتى نيوتن، العالم العظيم بعد ذلك، ولعله أعظم من أخرجت بلاد الإنجليز من علماء حتى اليوم (١٦٤٢ - ١٧٢٧ م)، وينظر نيوتن إلى تفاحة تسقط من شجرتها على الأرض، وما كان عليه من تثريب لو لم يعرها اهتماماً، فكم من البشر من قبله رأى ذلك ولم يحرك ساكناً.. ولكن الله العلى القدير، يضع علمه حيث يشاء، وكان صاحبنا من هؤلاء.. فاستلفت نظره سقوط التفاحة، وأدرك ما بينها وبين الأرض من تجاذب، فدرس، وتفكر وتدبر، ووضع قانون الجاذبية على النحو التالى: إن كل شىء له كتلة (وزن) يجذب كل شىء آخر له كتلة، وقوة التجاذب التى بينهما تزيد ازديادا طردياً، بزيادة أى من الكتلتين، وقوة التجاذب التى بينهما تنقص كلما زاد البعد بين الكتلتين، وتزيد كلما نقص البعد بين الكتلتين. فالقوة تتناسب تناسباً عكسياً مع مربع هذا البعد، فإذا زاد البُعد وكان مترين بعد أن كان متراً، فإن قوة التجاذب لا تنقص فتصير نصفاً، وإنما تنقص فتصير $\frac{1}{2} \times \frac{1}{2} = \frac{1}{4}$ ما كانت عليه..

ويستطرد العالم الإنجليزى نيوتن فى تصوير الحركة التى تنتظم هذا الكون، قائلاً بان كل جسم يظل على سكونه إذا كان ساكناً، أو يظل على حركته المنتظمة فى خط مستقيم إذا كان متحركاً، وهو يبقى على حالة السكون إذا كان ساكناً، إلا إذا فرضت عليه قوة، وهى عندئذ قد تعطيه حركة تظل تتزايد سرعتها، ما بقيت القوة تعمل فى الجسم، على أن تكون السرعة فى إتجاه القوة ذاتها، والتزايد الذى يقع فى السرعة (ويسميه المتخصصون العجلة) يتناسب تناسباً طردياً مع مقدار القوة، فيزيد بزيادتها، وينقص بنقصانها، كذلك يتناسب

تناسبًا عكسيًّا مع كتلة الجسم، فهو يزيد كلما صغرت الكتلة ويصغر بالتالي كلما كبرت.. والخلاصة أن لكل فعل رد فعل، يضاده ويساويه.

وهكذا استطاع هذا العالم الإنجليزى الأشهر، بما علم من علم من سبق، وبما أضاف هو لذاك العلم بالمثابرة والعمل، استطاع أن يصوغ أكبر قانونين يحكمان هذا الكون طُرًّا. وهى قوانين - كما يقول أستاذنا الدكتور أحمد زكى رحمه الله رحمة واسعة - براهينها فى السماء، أكثر منها على سطح الأرض. فهى العُمد التى ترتفع بها السموات بلا عمد نراها، وهى القوة الواضعة لكل كوكب ونجم ومجرة فى هذا الكون فى مكانها، دائرة فى مدارها.. وكل فى فلك يسبحون.. وهى قوانين ليست إنشائية أو كلامية، ولا من صيغ المناطقة وأصحاب الكلم، ولكنها قوانين تدعمها الحسابات، وتقومها الأدلة..

ولقد جاء من بعد نيوتن عالم آخر أشهر هو أينشتين (١٨٧٩ - ١٩٥٥) الذى رأى أن الصورة الحسابية التى صور بها إسحاق نيوتن نظرية الجاذبية ليست بالصحيحة أكمل صحة، فأضاف ما يُكمل الصحة، وأصبحت قوة الجذب بين الأجسام لا يتصورها اليوم العلماء كما تصورها نيوتن تمامًا، فما عادت تعتبر قوة الجذب اليوم، قوة ميكانيكية كالقوة التى يجر بها حصان عربة، أو تجر بها قاطرة قطارًا.

وهكذا كانت طائرتنا ساكنة حتى دارت محركاتها فأكسبتها حركة

راحت تتزايد حتى مكنتها من التغلب على الجاذبية الأرضية، فحملها الريح، وانطلقت فى الهواء، وهى ستظل فى الهواء إن شاء الله مادامت تلك المحركات تعمل، فتتولد عنها قوة تدفع فى اتجاه مضاد للجاذبية الأرضية وإلى حين..

وبينما أنا أفكر فى الجاذبية والتجاذب وقدرة الطائرة على التغلب على ذلك، وامتطائها صهوة الريح، إذا بالصفير الموسيقى يعاود نغماته من جديد، وننتبه، فإذا أمامنا مضيفة الطائرة، وقد ارتدت طوق النجاة حول عنقها ووقفت فيما بين المقاعد لتشرح للمسافرين تعليمات وإرشادات صادرة عن الهيئة الدولية للطيران المدنى، لكى تقدم لكل ركاب الطائرات فى كل مكان وفى كل زمان..ومن ثمّ فالمضيفة عليها ترديد ذلك عند كل رحلة، ترديدًا روتينيًّا لا يجعلها تتأثر بما تقول، ولا ينعكس من قولها على صفحة وجهها الجميل أية مشاعر، تتخيل مغبة ما توحى إلينا باحتمالات حدوثه.. وكذلك لا يستغرب من أدمنوا السفر بالطائرات ذاك الترديد.. هذا هو قناع الأكسجين عندما ترتفع الطائرة وترتفع، أو تقابلها من الظروف ما يجعل نسبة هذا الغاز الهام لعمليات التنفس عند الإنسان، تقل، فيشعر بالاختناق أو بالضيق فى التنفس، عندها سينفتح تلقائيًّا من سقف الطائرة فوق رأسك وتحت الأرفف، فتحة يسقط منها قناع كهذا، عليك بجذبه لتضعه فوق أنفك وتستنشق منه أكسجينا يساعدك على التخلص مما أنت فيه من كرب وبلاء، وضيق واختناق.. وتستطرد المضيفة الرقيقة الجميلة، وما أرقها،وما أقسى ما تصوره لنا كلماتها.. تستطرد لتقول: وإنك أيها المسافر العزيز،

وضيفنا الكريم، لواجدٌ تحت مقعدك، عندما يحم البلاء، ويهوّم الهلاك من حولك، طوق نجاة أو سترة نجاة.. فإذا ما حم القضاء وسمعت، أو لم تسمع النداء ، وجاءت اللحظة التى يقول فيها كل واحد أنا يارب ولا سواى، ولا تلفته إلى عزيز عليه أية مشاعر أو عواطف، أقول عند الاستشعار بهبوب كارثة، أو الاضطرار للهبوط فى بحر أو محيط، فعليك أن تتطوق بطوق النجاة هذا، أو أن ترتدى سترة النجاة هكذا، كما نفعل أمامك الآن. ثم عليك أن تجذب طرفًا منها، فتمتلئ السترة بالهواء ليحملك برفق وهوادة فوق الماء، أو يهبط بك من عليائك إلى الأرض بسلام وأمان.

وتبتسم مضيفتنا وهى تقول، وإن حدث ما قد لا تُحمد عقباه، فتعسر امتلاء السترة تلقائيًا بالهواء، فإنك لواجد بها فتحة أنبوبية – هكذا تقول، وتتمثل ما تقول أمامنا لنفهم – عليك عندئذ أن تضعها فى فمك، وتنفخ وتنفخ، حتى تمتلئ السترة بالهواء، فان لك فيه وجاء.. ولا تتعلل عندئذٍ بانقطاع الأنفاس لرهبة موقف أو اضطراب أعصاب، فإنك عندئذ الجانى على نفسك. فإن وفقت وطاوعتك أنفاسك على مِلء السترة بالهواء، فتوكل على الله، وألق بنفسك حيث تكون.. ولم تنس مضيفتنا الرقيقة أن تتمنى لنا السلامة مما سنكون فيه من هول وبلاء، وأن يكون عودنا إلى أرضنا عودًا حميدًا بلقاء أو بغير لقاء.. وهى فى النهاية كما يقول الشاعر:

مشيناها خُطًا كتبت علينا ومن كتبت عليه خُطًا مشاها

وكل واحد ونصيبه.. واللقاء نصيب يا جماعة..

وتنهى مضيفتنا الرقيقة والجميلة تعليماتها إلينا، وغير الرقيقة بالمرة، ببسمة ربما فيها الأمنية الطيبة، وربما فيها التساؤل: هل أنتم مقتنعون بما قلت؟!

ولقد كنت قبل محاضرة المضيفة هذه، سعيدًا بترحيب قائد الطائرة وطاقمها الودي لنا على طائرته، وتمنياته لنا برحلة سعيدة على الطائر الميمون الذي يقوده. وكنت سعيدًا أيضًا بقوله: إننا الآن قد ارتفعنا عن الأرض بأكثر من ثلاثين ألف قدم، وإننا سنصل فرانكفورت فى الموعد المحدد لنا.. كنت نشوانًا بهذا الارتفاع عن الأرض، وباستقرار الطائرة فى طبقات الجو العليا التى أدركتها بما اعترى أذنى من ضغط داخلى، ينبئ بنقص الضغط الواقع على الجسم عن الضغط فى داخل الجسم، ولكن كلام مضيفتنا أوقفنى عن الاستطراد فى النشوة، وفك عقال أفكارى لتنطلق مع الهواجس والقلق، وجمح خيالى منى فما عُدت عليه بمسيطر. أنطلق فوق بساط ذهن شارد، يقلب فى ماضيه، ويفتش فى زوايا أيامه الخوالى الماضيات، أو يختلس نظرة حيرى إلى مستقبل يؤمله، أو يتبصر فى حاضر هو فيه لا يدرى من أمر اللحظة التى تليه شيئًا. أو قُل هو فكر اختلطت فيه كل الأمور وتشابكت فيه أحداث الماضى والحاضر والمستقبل، آخذة بعناق بعضها البعض، متضاربة متراكلة، فلا أدرى أولًا لها من آخر، ولا بداية من نهاية.. هو اضطراب تطفو فوق صفحته حقيقة واحدة.

هيكل من حديد وخشب ومواد كيماوية وما بينها، تحمله طبقات

الهواء الجوى، ليرتفع ويرتفع، محاكيًا الطير فى تحليقه، متفوقًا عليه فى قوته وجبروته، وأنا - الإنسان - من لحم ودم وعظام هشة هيئة لينة، إذا ما قورنت بالمعدن والخشب والنار فى ماكينات الطائرة الهادرة. أنا الإنسان ذو الروح والأحاسيس وما جُبلت عليه النفس البشرية من خوف وفزع - وأى خوف أفظع من خوف لفقد الحياة، وهلاك تقل فيه نسبة النجاة.. ثم تأتى مضيفتى الرقيقة والجميلة.. نعم يأتى هذا الجمال وتلك الرقة، التى شدت العيون إلى مفاتنها، فتركزت الأبصار على شفتين شفتا عن بسمة ساحرة، ثم شيئًا فشيئًا زاغت الأبصار، وتاهت عن كل ذاك الجمال، فيما تصور الكلمات من أهوال.. أقول يأتى هذا الإنسان الرقيق ليقول لى: عليك أن تفكر بهدوء عند الطامة، وعليك أن تتصرف بروية عند وقوع البلاء، والبس السترة كما يجب أن تكون، واجذب - دون أن تخطئ أو تتعثر - الخيط لتمتلئ بالهواء، واضبط أعصابك تمامًا وكن رزينًا تمامًا، لا وجلًا ولا هيابًا، وعندما تفشل فى ذلك، فأعد الكرة بعد الكرة، فإن لم تستجب لك السترة، فتمهل، لا تخش شيئًا، واستعن بالله وانفخها بنفسك، وليكن نَفَسُك موصولاً غير مقطوع، وانفخ.. وانفخ حتى تمتلئ بالهواء، ثم توكل على الله، دون أن تنسى أن تقول لجارك: إلى لقاء.. ووجدت نفسى، أسأل نفسى بصوت مسموع: أمعقول هذا الكلام؟ وهل يعقل أن يكون فى مكْنَتى واقتدارى، أن أفعل ذلك، وبكل الهدوء، كما تطلب منى مضيفتى العزيزة، فهى - ونسيت أن أقول لكم - تطلب منا جميعًا - نحن ركاب الطائرة - أن نلتزم الهدوء عند الاقتضاء، وألا نتزاحم على الأبواب.. والسيدات أولا

بالطبع، كيف لا يثور الرعب فى النفوس فتنخلع من الضلوع، وليس فقط من المقاعد التى نحن عليها جلوس؟ وهل يتأتى الوقت، إن تأتى الهدوء وضبط الأعصاب؟ آهٍ.. لماذا نركب الطائرات وهم هكذا - يخوفونا عند بداية كل رحلة، بما يصورونه لنا مما يحتمل أن يكونٍ؟ والاحتمالات كثيرة كثيرة أقلها مُسْلِمٌ للهلاك لا مشاحة؟ وقديمًا قال الشاعر يثبط الهمم فى ركوب البحر:

لا أركب البحر.. أخشى عليّ منه المعاطب
طينٌ أنا، وهو ماء والطين فى الماء ذائب

هلّا قال الشاعرٍ قولا آخر فى ركوب الهواء، وأيهما يا ترى أشد خطرًا، وأبعد هولاً ورعبًا..

وأجد نفسى تهرب من هذا الفكر المتخبط، بين الخوف وتوقع ما يمكن أن يكون، وبين المساجلات الأدبية، واستعادة المحفوظ منها وما تعيه الذاكرة لم تزل، وتهرب النفس إلى ترتيب ما يمكن أن تفعل حقًا، والتخطيط له، إذا ما جاءت اللحظة وصار الخوف حقيقة؟ ماذا يمكن أن أفعل، وماذا يفعل غيرى؟ أحقًا يكون فى الإمكان تنفيذ ما أشارت به المضيفة؟ وما حفظته لنا بالقول وبالإشارة، خاصة وهى توصينا حتى لا ننسى، وتذكرنا حتى لا نضل الطريق، أن بالطائرة الضخمة أو حافلة السماء أو السحاب، إن صحّت التسمية، والتى تحمل قرابة الثلاثمائة راكب - أن بها ستة أبواب للطوارئ تساعد على هجرة الركاب منها عند الضرورة القصوى، فلا ننسى إلى أى منها نتجه، ولا يجب ألا نتزاحم عندها، فيقتل بعضنا بعضًا،

طلبًا للنجاة، وحبًّا فى الحياة، ويالها من أنانية عندئذ ، يجب أن ننزه عنها نفوسنا.

وأعود مشدوهًا كالأبله، وقد انفغر منى الفم، وأسأل نفسى، أحقًّا يمكن هذا؟! وتدور تسجيلات الذاكرة سريعًا، فتجلب أمام مجال الرؤية منى، أحداث الطائرة اليابانية – وكانت قد حدثت قبل ذلك بشهر أو بنحوه، والتى كانت تحمل أكثر من مائتى راكب، وتحطمت فى شهر أغسطس عام ١٩٨٥، فوق منطقة جبلية وعرة. ارتفعت فيها الجبال، فكانت كأسنان الفك المفترس، وعمقت فيها الأودية فكانت كظلمات بطن الحوت.. أقول سقطت تلك الطائرة فذهبت بَدَدا، وتناثرت أشلاء من فيها شذر مذر، إلا واحدًا أو بعض واحد. فالبقية فيه بعد ذاك الحدث – فسيولوجيًّا أو نفسيًّا – لا يمكن أن تبقيه فردًا سويًّا.

يا للطامة الكبرى..

وتبًّا لك من ذاكرة.. حاضرة حين لا تُستدعى، غائبة حين يُلح عليها..

ما باليد حيلة.. هذه هى الأحداث تترى، وهذا هو شريطها يدور ويدور. قيل إن الطائرة قد أصيبت بشكل مّا، ربما اصطدام، وربما صاعقة من السماء، وربما خلل فى الماكينات.. ربما.. وربما.. المهم أن ما حدث قد حدث.. ولكن الحدث لم يكن فجائيًّا، فقد علمه قائدها، فأرسل بإشاراته إلى مطارات الأرض، أن أغيثونا، فقد فقدت السيطرة على الطائرة، فهى تتأرجح ذات اليمين وذات الشمال، وهى

لا تستجيب لتوجيه، ولا تأبه لإرشاد، وهي تندفع مترنحة كأنما مسَّها الجنون، وهي تدور في عناد حول نفسها، كأنما هي تتمرد على الحياة، أو كأنما هي بإنهاء حياة ركابها مأمورة، فماذا أفعل؟

شيء، أهون منه المرارة والحسرة..

وأمرٌ، أمَرُّ بكثير من كآبة الموت بين الصحاب..

ماذا يفعل؟ وماذا فعل في السماء؟ وماذا فعل الآخرون على الأرض؟.. إنها الساعة قد دقت. فماذا فعلوا بستراتهم وأطواق النجاة تحت مقاعدهم، وهم قد رأوا الخطر رأى العين فلم يفجأهم، وإنما أمهلهم برهة فماذا هم فاعلون؟ هل فكروا وتدبروا ما قاله لهم مضيفوهم من الإرشادات العالمية التى حتم على كل طاقم في كل طائرة أن يردده ويحكيه.

الله أعلم بما فعلوا، ولكنهم قضوا نحبهم.. وما عاد منهم من ينتظر..

وكأنما نفسي لم تقتنع بتلك النتيجة، وراح حبها للحياة يزين لها أن لابد أن تفكر وتعمل، وتنفخ السترة، وتذهب إلى باب الهجرة في الطائرة، كما قالت المضيفة، أيعقل أن يبقى الإنسان في مقعده حتى يهلك، لماذا لا يحاول، وإن لم يحاول فاللوم عليه.. عندئذ، نظرت إلى من بجواري ومن سيكون عقبة في طريقي حين تحين الساعة.. لقد كانت سيدة رقيقة لفتتها نظرتي إليها وتخيلتني أحييها، فبادلتني التحية بأحسن منها، إذ غلفت نظرتها الرقيقة بابتسامة أرق، كانت بردًا على نفسي، وسلامًا على روحي الفزعة، فسكنت قليلا..

وما هى إلا لحظات قلائل، حتى عاودنى الهمّ، وألحّ علىَّ إلحاحًا.. والخوف قاتل من قبل أن تنهدم البنية، أو يُنقض البناء، وتسيل الدماء. عند ذلك، انفتحت عيناى حتى آخرهما، ونظرت إلى اللاشىء، وسقطت نظراتى فى بئر سحيق بلا قرار، ليس فيها إلا خيالات اصطراع بين الخوف والسكينة، واليأس والرجاء،، وتعود تشدنى إلى واقعى حيث أنا، آخر ما يمكن أن يفعل أو يقال فى لحظات هى آخر اللحظات، ولا أمل بعدها فى الحياة.. آخر ما يمكن قبل النهاية.. هل هناك حقًّا مايمكن أن يُفعل أو يُقال؟ هل يكون هناك عقل يعمل؟ أو هو خبط عشواء؟ هل هناك عقل يفكر، أو هو الهزيان إن لم يكن الشلل الفكرى الكامل؟ شىء غريب وعجيب حقًا. قد يقول قائل عندها: لابد أن نفعل كذا وكذا، وأن نتصرف كيت وكيت.. ولكن ذلك فى حقيقة الأمر لا يكون إلا فى المتسع من الوقت، بله السكينة والروية. ولكن هل جرّب أحدكم كيف يفكر، وكيف يعمل حين تفجأه مشكلة أو كارثة؟ إنه عندئذ بحاجة لمن يفكر له ويعمل له.. أنا شخصيا من هذا النوع. ولكن ليس الكل هكذا دون شك فللبعض رباطة جأش يُحسد عليها، وقدرة على امتصاص الحدث عجيبة.. تمكنه أن يفعل أو يقول ما يريد، ثم يسلم نفسه للأقدار.. هل هى قوة الإيمان؟ ربما. المهم أن ذاكرتى الملحاحة تركز الآن أضواءها الكشافة على أحد ركاب تلك الطائرة اليابانية المنكوبة، وعلى دفتر صغير وجد فى جيب سترته، ينبئ عما كان منه عند دنو الأجل، والإحساس بالخطر.. إنه لم يصرفه خوفه عن التذكر.. فذكر أول ما ذكر، زوجته وأبناءه..

وكذلك لم يصرفه وجله عن الفعل، فأخرج دفتر جيبه وسطر فيه عبارات تقول: إنه بعد لحظات ربما لا تتسع لنفس يخرج من صدرى أن يعود إليه ثانية، قد أنتقل من عالمى هذا إلى عالم آخر، لكننى أقول لك يازوجتى إننى أحببتك كثيرًا، وإنى لأرجو أن يكون الأبناء عند حسن الظن، وأن يعرفوا التضامن فيما بينهم والكفاح والنجاح.. ووداعاً.. ذاك ما قاله وكتبه.. فماذا أكتب أنا لعلية ومها.. وشريف وأسامة.. يالها حقًا من رباطة جأش عند بعض الناس!!

وياله من إيمان يُضفى على النفوس الراحة والسكينة عند البلية..

وكأنما أخرجنى إعجابى بهذا الرجل، من عتمة الخوف وظلمة الفزع، فهدأت نفسى وتمتمت قائلاً: ﴿قل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا﴾. و ﴿الحمد لله الذى سخّر لنا هذا﴾. قلت هذا وأنا أهز رأسى، وشبح ابتسامة باهتة يتسلل إلى شفتى، ومددت يدى لجريدتى اليومية راجيًا أن أذيب فكرى بين سطورها، وأن أغرق ذاكرتى فى موضوعاتها.. وياللعجب العجاب.. أقول لكم دون أن تدهشوا، ماذا قرأت فيها أول ما قرأت.. لقد كان هذا الخبر..

«طوكيو- وكالات الأنباء- صرح مسئولون فى طوكيو بأن الرفات المتبقى من إحراق جثث الموتى، وضحايا حادث الطائرة اليابانية، التى تهشمت فى أغسطس الماضى وعددهم ٢٢٠ شخصًا، قد سُرقت من محرقتين، بعد أن أزيلت منها العظام حسب التقاليد اليابانية. وقد حدثت السرقة التى تستهدف البحث عن الذهب أو الجواهر فى أسنان الموتى، على الرغم من الحراسة المشددة على المحرقتين».

يا سبحان الله.. قلتها وأنا أطوى الصحيفة ثانية..

وجاءت ابتسامة المضيفة المصرية، السمراء الساحرة، بَلْسمًا ليمحو كل تلك الخزعبلات والخرافات من ذهنى، وهى تمد يدها الرقيقة لتصلح من وضع الطاولة المثبتة فى ظهر المقعد الأمامى. استعدادًا لتناول وجبة الغذاء الساخنة.. واستغرقنى الطعام المصرى الرائع..

واستغرقنى الحديث الطلى لجارتى الإنجليزية القادمة من كينيا فى طريقها إلى لندن بعد أن نزلت فى القاهرة (ترانزيت) لمدة ثلاث ساعات..

وكان الطعام لذيذًا..

وكان الحديث مسليًا..

ونسيت كل أوهامى..

* * *

حديث مع روث

قالت جارتى الإنجليزية، وهى سيدة فى حوالى الأربعين من عمرها، باسمة العينين، بيضاء الأسنان بين شفتين رقيقتين، لم تصبغهما الألوان الحمراء:

- وجهك ينطق بالملامح المصرية.. هل أنت مصرى؟.
- نعم..
- وإلى أين أنت مسافر؟
- إلى بلادكم.. المملكة المتحدة، وإلى سكوتلاندة بالذات، هل أنت منها؟
- لا .. أنا من ضواحى لندن..
- وماذا كنت تفعلين فى كينيا؟
- زوجى يعمل هناك.. ولكن حدثنى عن الأوضاع فى بلادكم؟
- بلادى مستقرة، وهى تسير فى خطة التنمية بخطا لا بأس بها. لدينا مشروعات كبيرة، وصناعات متعددة، و .. ولكنها قاطعتنى قائلة:

– المعروف أن لديكم زيادة سكانية رهيبة، وعلى قدر معلوماتى – فأنا متخصصة فى الزراعة.. فإن المساحة المنزرعة عندكم، لم تتعد نفس القدر الذى كانت عليه من مئات السنين، بل آلاف فماذا أنتم فاعلون لتلك الزيادة الواردة كل عام؟

– إننا جادون فى استصلاح الأرض واستزراعها، بجانب أننا قد قطعنا فى الاتجاه إلى الميكنة الزراعية أشواطًا كبيرة..

– إن لى رأيًا فى ذلك. أنتم تميكنون الزراعة، لا تطورونها.. إنكم بدلاً من الساقية والشادوف تستخدمون الماكينة، وبدلاً من المحراث تستخدمون الجرار، ولكن الزراعة هى هى لم تتطور. المهم أن تطوروا الأسلوب، وأن تغيروا التركيب المحصولى فى بلادكم، وأن تتحكموا بشكل ما فى التأثيرات المناخية على حاصلاتكم.. هناك كما درست أساليب متعددة لتطوير الزراعة فى بلاد مثل بلادكم..

ولما لم أكن متخصصًا فى الزراعة، حتى أجاريها فى حديثها هذا، حاولت أن أنقل الكرة الى ملعبها فقلت:

– أعتقد أن الأزمة الاقتصادية تغطى مساحة كبيرة من هذا العالم.. فأنتم مثلاً على ما نقرأ فى الصحف، بدأتم تعانون من البطالة، وأعتقد أن هذا راجع لانحسار الاستعمار، فبعد أن كنتم تستعمرون بلادًا كثيرة كانت مزارع لمصانعكم، ومورد لخزائنكم، أصبح لزامًا عليكم أن تعيشوا فى حدود بلادكم، وتجدون الطعام وفرص العمل لأبنائكم على أرضكم..

– فابتسمت محدثتى وقالت:

– نعم هذا صحيح. ولكن هل يعنى أننا نعيش على أرض أقل مما كانت، أن يكون لذلك تأثير على الدخل القومى فى بلادنا.. ثم استطردت قائلة: ربما لحد ما.. ولكن لنا قدراتنا التى تدفعنا قدمًا، لنتغلب على فقدنا للمصادر التى كانت ترد من المستعمرات.. إن الرقعة المحدودة لا يجب أبدًا أن تؤثر على قدرات البشر فى محاولة الأرتقاء بالمستوى الإنتاجى، وما يترتب عليه من مستوى معيشى.. لدينا بطالة، نعم، ولكنها ناشئة ربما عن نفور وأنفة من أبنائنا من أعمال، كان يعملها غيرهم دائمًا.. إننا نحاول أن نرسخ فى الأذهان اليوم أن العبرة بما يؤدى من عمل، لا فى شكل العمل نفسه، ولذلك فسترى فى شوارع لندن عمال نظافة إنجليز.. وهذا مالم يكن من قبل.. ثم إن محدودية الرقعة، لا تقف أبدًا حجر عثرة أمام عبقرية الإنسان. وخذ عندك مثلا شعب اليابان، بلاد محدودة المساحة، محدودة مصادر الثروة الطبيعية، ولكن ذكاء هذا الشعب جعل إمكانياته بغير حدود، وجعل منه منافسًا لأغنى دول هذا العصر.. ونحن أيضًا مع رئيسة وزرائنا نحاول أن نكون كذلك.. وتبسمت قائلة: لا تعد ذلك تحيزًا للجنس..

ونظرت إلى السيدة روث بإعجاب شديد، وبظل ابتسامة على شفتى قلت لها:

– إننى أشاركك الرأى تمامًا، فنحن أيضًا نضمر لشعب اليابان إعجابًا وتقديرًا، ونحن نعتقد أننا فى مصر، بدأنا مرحلة التطور والتقدم والتنمية، بعد فترة تخلف طويلة، فى فترة متزامنة مع تلك التى بدأ فيها الشعب اليابانى صحوته.. ولقد قطعنا فى ذلك شوطًا كبيرًا،

ولكنه جدت فى طريق شعبنا عوائق ومتاهات، بعدت بنا عن الهدف، وظل الشعب اليابانى عارفًا لهدفه، ولم تفرض عليه المتغيرات، فمضى.. وكان ماكان..

قالت روث، وهى تهز رأسها بشدة فتنسدل خصلات من شعرها الأصفر الناعم الرجراج على جبينها: أعرف.. أعرف.. فإن بلادكم - وابتسمت قليلا - نامية، ومن الطبيعى أن يكون الموقف كذلك.. كما أن مصادر الثروة البيئية عندكم محدودة على نحو ما، فليس فى بلادكم العربية بشكل عام، إلا البترول، وهو مصدر ثروة وارد حديثًا. و ..

فقاطعتها، وأنا أقول: سنعود ثانية لمصادر الثروة الطبيعية، مع أننا قلنا إن اليابان ليس بها من مصادر الثروة الطبيعية الكثير.. لا .. إننى أقول إن مصادر الثروة عندنا فى مصر، ربما كانت البشر قبل أن يكون بترول أو زراعة.. ولكن لعلك تعرفين ما فرض على الإنسان المصرى فى عصوره الأخيرة من دوامات استنفدت قدراته الإنتاجية. ولكننا الآن نركز على الإنسان بجانب حسن استثمار مواردنا البيئية، والسير فى عمليات التنمية، فالحضارة والمدنية فى عصرنا الحالى، هى محصلة التفاعلات والتجاوبات المستمرة بين قدرات الإنسان العلمية، والتقنوية، والتنموية، وبين مدى استغلاله الراشد والمثمر لمصادر الثروة فى بلاده، فإن سمت هذه القدرات، كانت الحضارة والمدنية، وإن وهنت كان التخلف والهمجية. وعلى ضوء هذه الاعتبارات بدأ يختفى هذا التصنيف القديم للأمم من

حيث كونها متقدمة أو نامية أو متخلفة. وظهر الآن تصنيف جديد على حسب معايير اقتصادية جديدة تعتمد على قدرة الموارد والطاقات البيئية على العطاء، وعلى قدرات العناصر البشرية المتميزة لهذه الأمة- من الوجهات العلمية والثقافية والتقنوية والتنموية والتخطيطية والاجتماعية- على حسن استثمار وتنمية هذه الموارد والطاقات ولقد جاء هذا التقسيم الجديد للأمم تبعًا لذلك بأربع مجموعات:

أمم غنية - غنية: وهى الأمم المتميزة بمواردها وطاقاتها البيئية، وعناصرها البشرية وتفوقها فى تنمية هذه الموارد.

أمم غنية - فقيرة: وهى الأمم الغنية بمواردها الخام، وطاقاتها البيئية، والفقيرة بمقوماتها من العناصر البشرية، وقصورها فى تنمية تلك الموارد..

أمم فقيرة - غنية: وهى الأمم الفقيرة بمواردها الطبيعية، وطاقاتها البيئية، والغنية بعناصرها البشرية المتميزة، وهذه العناصر تستطيع بنجاح استثمار وتنمية هذه القلة من الموارد والطاقات. ولعلنا فى مصر أن نكون من هذا الصنف.

أمم فقيرة - فقيرة: وهى الأمم الفقيرة بمواردها وطاقاتها البيئية، وبعناصرها البشرية المتميزة، وقصورها فى التنمية، وهو ما يعبر عنه بالفقر المزدوج.

وهنا فتحت روث عينيها إلى آخرهما، وصاحت: حسن حسن أن

أسمع منك ذلك، ولكن قل لى، إلى أى نوع من ذلك تنتسب أمتك يا ترى؟!.

- أحدثك عن أمتى المصرية. فهى مهد حضارات الماضى، وهذا ما لم يعد جائزًا أن نتحدث عنه الآن.. إننا الآن فى مصر نبحث جادين عن عيوبنا، فنصلحها، نبحث عن مشاكلنا لنقهرها، نحاول جادين أن ننطلق، وأول خطانا فى ذلك، الإنسان، لدينا من مصادر الثروة البيئية، ما يُغنى إذا أُحسن استغلاله.. ومن ثم، فنحن نأمل مع الغد أن نعوض تخلفنا، وأن نلحق بأمم كانت معنا على بدايات الطريق فسبقتنا.. إننا محملون اليوم بديون كثيرة نعم، ولعل هذا ما تقصدينه ولكنها ديون جاءت للإنتاج، ومن ثم فلها مردود.

فقالت روث: آمل لكم ذلك، فأنا قرأت كثيرًا عن بلادكم وآثاركم، وكم أعجبت بها.. وكم أتمنى أن تعيدوا مجد تلك البلاد العظيمة..

وهنا لفتتنا إليها، مضيفتنا، وهى تقف أمامنا بقوامها المتسق، حاملة فى يدها إبريق الشاى، وملامح وجهها الجميل تنطق فى كرم.. شاى.. تفضلا.. وشربنا..

وساد صمت.. شرد معه كلانا بفكره وخياله بعيدًا عن الآخر.. وأطلقت لنظرتى العنان لتنطلق من كوة الطائرة إلى بعيد، بعيد.. استرجع فيه قصة هذا العالم العربى الذى أصبحت أحداثه قصة تروى بكل ما فيها من متناقضات التخلف والرجعية وادعاءاتها

التقدمية، وهوس الثراء الفاحش وضنى الفقر المهلك.. ومع ذلك فهى قصة عالم عربى جاءته أعظم رسالات من السماء، فأصبح بها ذات يوم أعظم شعوب الأرض طرًّا.. ثم غشيته غفوة فى الزمان فنام عن حضارته، فاستلبت منه استلابًا. وامتلأت سماؤه، والدنيا ضحى، بظلمات فوق ظلمات، حتى تفجر له من باطن الأرض شيطان أسود، فأجهز على بقية رسالته العظيمة بدلًا من أن يبعث الدم فى عروقها، ويزيل عن جذوتها التراب.. لا، بل راح ذاك الشيطان الأسود يلتهم فى العالم العربى إنسانه وإنسانيته، ويطمس فيه معالم الإيمان، فلا يبقى له سوى نفس مريضة أمارة بالسوء، أمارة بالجشع واجتثاث الضمائر.. أين نحن من عالم عربى كان.. وما عاد اليوم بكائن إلا اسمًا ؟! أين نحن من عالم عربى وحضارة عربية سادت زمانًا، فأعطت البشرية، وأثرت الإنسانية على الأرض ! أين نحن من حضارة عربية لم تزل حفائرها المتحجرة شاهدة على عظم ما كانته، يوم لم يكن على الأرض سواها ليمشى فى الأرض يفكر ويتدبر وينشر على الدنيا نورًا ؟! إن الحضارة الأوربية الكائنة اليوم، ما كانت لتكون، لو لم تكن الحضارة العربية، وما فيها من حشد العلماء العرب الذين آمنوا بالعلم مع الإيمان، ولم يجنحوا للعلمانية بأى حال من الأحوال.

دارت تلك الخواطر فى ذهنى، فى حين أن نظراتى هناك فوق السحاب لا تصطدم بشىء.. وإذا بخاطر يرد سريعًا من عمق الذاكرة ليُلقى بالضوء على عالم عربى كان أول من فكر فى الطيران، فكان بذلك للحضارة العربية سبقًا على كل الحضارات. ذلك هو

عباس بن فرناس. ومن يركب الطائرة دون أن يذكر ذلك الرجل، فإنما هو بالحقيقة.. غافل.. ذلك عالم تربّى فى ربوع الحضارة العربية، وأشرقت عليه شمسها. وهو مخترع أندلسي توفى عام ٨٨٧ بعد أن نهل من العلم العربى، ونشأ فى الجامعة العربية، يوم لم يكن غيرها فى هذا العالم، ويوم أن كانت تستقبل فى فرعها بالأندلس بعثات أوربا فتيات وفتيانا. إنه رجل من موالى بنى أمية كان فيلسوفًا شاعرًا وله علم بالفلك.. وهو أول من استنبط فى الأندلس صناعة الزجاج من الحجارة، وصنع الميقاتة لمعرفة الأوقات. ومثل فى بيته السماء بنجومها وغيومها وبروقها ورعودها. امتدت تطلعاته إلى أن يحاكى الطير فيشاركها سماءها، وأن يفك رباط الجاذبية بالأرض فيطير بجثمانه، فكسا نفسه بالريش، ومدَّ له جناحين.. وحاول الطيران هابطًا من فوق مرتفع، فكان كمن علا زلقًا، وعن غرة زلجًا.. سقط، ومات. ولكنه فى مقياس العرف البشرى، وسُلَّم المعرفة المكتنزة على طول طريق البشرية، يُعتبر أول من طار فى الجو.. ولشعراء عصره شعر فى وصف سمائه وطيرانه..

ولشيء فى نفس يعقوب، ويعقوب هو أنا فى هذه اللحظة، التفت إلى روث جارتى الإنجليزية، وكانت قد انصرفت عنى إلى مجلة مصورة.. قلت لها: عفوًا سيدتى.. وإنما استدرك بعد أن أنهينا حديثنا عن عالمنا العربى، لأقول: إنه كان لهذا العالم فى يوم مّا حضارة، وكان له فى دنيا العلم، والمعرفة جامعة ومنارة.. ولكن الدهر حُوَّل قُلبَّ.. ولا نعتذر، بل ولا يجب أن نعتذر عن تحول الدهر عنا،

وإدارته لنا ظهر المجن.. وإنما نحن الذين فعلنا بأنفسنا، وزرعنا فى أرضنا ما نجنى ثماره اليوم.. وفى الدين الإسلامى يا سيدتى أنه لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.. وفى شعرنا العربى قول ذهب مثلاً:

نعيب زماننا والعيب فينا   وما لزماننا عيب سوانا

والخلاصة أننى أود أن أقول: إن ما نحن فيه هذه اللحظة، يذكرنا بمجد تلك الجامعة العربية وامتداد نورها.. ففى أحد فروع تلك الجامعة، فى الأندلس، كانت أول فكرة خطرت على قلب بشر تنبئ بالطيران.. وهى فكرة أخذها صاحبها أخذ الباحث المدقق، ونقلها من حيث هى فكرة نظرية إلى ميدان التجريب العلمى، وإن دفع ثمناً غالياً، لكنه التطلع وحب المعرفة، وهى الجبلّة الأساسية التى خلق عليها الإنسان، وذاك هو الطالب فى جامعة الحضارة العربية والملقب بعباس بن فرناس..

ورفعت روث الجميلة والرقيقة، حاجبيها إلى أقصى ما تستطيع أن تفعل، وعلامات الدهشة تملأ وجهها النقى، الذى يكاد أن يشف جلده الذى ألبسه عُنوة، عما تحته من دم كشربات الفراولة.. قالت: أكان التفكير فى الطيران، واختراع الطائرة من منجزات الحضارة العربية؟!!.. مبلغ علمى أن الطائرة، وهى مركبة هوائية تدفعها قوة رفع الهواء الناتجة عن تحركها بسرعة كبيرة، كان بدايات محاولة إيجادها، عند الألمانى أوتو لينثال فى عام ١٨٩٦، حيث تمكن من تصميم أجنحة استخدمها فى الهبوط، دون أذى.. ثم صنع الأخوان

رايت «أوفيل (١٨٧١ – ١٩٤٨) وأخوه ويلبر (١٨٦٧ – ١٩١٢) على ما أتذكر» أول طائرة، وهما أمريكيان تأثرا بمحاولات ليلنثال فى الطيران الشراعى، وأدخلا بعض التصميمات والإصلاحات على الطائرة الشراعية، فصمم أوفيل محركًا لها، وتمت أول رحلة لها بالقرب من كيتى هوك شمال كاليفورنيا فى ١٧ ديسمبر ١٩٠٣.

كنت منصتًا لحديثها، جيد الإنصات، وهى تشرح لى قولها، بكل قسمات وجهها وإشارات يديها.. حتى انتهت من حديثها.. فقلت.. ذكرت يا سيدتى، أن من ذكرت من مهندسين ومخترعين قد اخترعوا أو أضافوا، ولكنك نسيت الفكرة والإلهام. ذاك الخاطر الذى يسطع فى الذهن، كأنه وحى من السماء ينزل إلى الأرض لأول مرة، لكى تمارسه البشرية من بعد، ويصبح فى حياتها عاديًّا، وهو من قبل لم يكن شيئًا مذكورًا.. العبرة ياسيدتى بهذا الإلهام.. ولقد كان أول ما كان، عند عربى فى الأندلس.. وكم من بدايات فى العلوم، ونقاط بدء فى الاكتشافات، كانت عند هؤلاء العرب أصحاب الحضارة، لا عرب اليوم. ولكن حضارة اليوم ومؤرخيها يتجاهلون تلك البدايات، ويتناسون دور الكثير من الحضارات السابقة، وإن تعمدوا ذلك مع الحضارة العربية.. فكيف تكون الثمار دون فروعها، وكيف تكون الفروع دون جذورها.. والحضارات واحات فى طريق البربرية، متصلة مسالكها متشابكة حلقاتها.. ما كان آخرها ليكون، لولا البدايات الأولى مهما كانت فجة..

* * *

كريت.. مونت بلان

لفتتنى الإشارات الموسيقية الواردة من قائد الطائرة تعنى الإصغاء وحُسن الانتباه، فالسكون والهدوء يغريان العقل بالشرود، ويزينان له سبحات هنا وهناك.. وأصغيت بعد أن استجمعت حواسي.. قال محدثنا عبر المكبرات الصوتية: نحن الآن نعبر البحر المتوسط، وبالذات فوق جزيرة كريت، فإذا نظرتم من النوافذ ستجدون تحتنا تمامًا أكبر جزيرة باليونان إذ تبلغ مساحتها ٨٣٨٠ كيلو مترًا مربعًا وتعداد سكانها يزيد على خمسمائة ألف نسمة. وهى تقع فى شرق البحر المتوسط، على بعد نحو ٩٦ كيلو مترًا من صلب بلاد اليونان وعاصمة الجزيرة هى كانيا، والجزيرة تبدو أمام عيوننا صغيرة تجمع أطرافها بنظرة واحدة، إلا أنها فى واقع الأمر تمتد قرابة ٢٥٧ كيلو مترًا من الشرق للغرب، وهى تعتبر الحد الجنوبى لبحر إيجة، وهى جزيرة جبلية إلى درجة كبيرة، يبلغ أقصى ارتفاع فيها إلى نحو ٢٤٨٥ مترًا فوق سطح البحر، فى جبل أيدا، هذا الذى نحن نطير فوقه تمامًا الآن، ومن

محصولات الجزيرة زيت الزيتون، والفواكه، والخضراوات، والكروم، وبها خامات الحديد والفحم.. هذا.. ومازال طاقم الطائرة المصرية يتمنى لكم رحلة سعيدة بصحبتنا.. وشكرًا لكم.. ثم عاد المتحدث ليقول ما قال باللغة الإنجليزية..

وداومت أنا النظر إلى جزيرة كريت قليلاً، ثم امتدت نظراتى فوق البحر بلونه الأزرق المخضر الداكن، والتي تعلو صفحته بين الحين والحين أمواج تتبدى للناظر من الطائرة ندفًا بيضاً من القطن المنفوش، وراحت الذاكرة تستجمع ما فيها عن جزيرة كريت هذه التى تتبدى لنا كطبعة قدم الرِّجْل البشرية، لا تزيد عن حجمها، من هذا البعد السحيق الذى يزيد على ٣٥ ألفًا من الأقدام. تلك هى كريت إذن، التى تعتبر حضارتها المينوئية القديمة نسبة إلى الملك مينوس الأسطورى، من أقدم حضارات العالم، وقد بلغت أوجها حوالى ١٦٠٠ قبل الميلاد، ثم انتهت تلك الحضارة وتلاشت فجأة وبصورة غامضة. وقد وجدت آثار رائعة فى كنوسوس ترجع لهذه الحضارة. استوطن جزيرة كريت فيها بعد الدوريون، وأسسوا كثيرًا من دول المدن المزدهرة، ومنها كنوسوس وسيدونيا (كانيا حاليًا). وبرغم أهمية كريت باعتبارها مركزًا تجاريًا، فإنها لم تلعب دورًا هامًا فى التاريخ السياسى لليونان القديمة. استولى الرومان على جزيرة كريت فى الفترة ٦٨ - ٦٧ قبل الميلاد، ثم العرب عام ٨٢٦ حيث انتزعوها من الأباطرة البيزنطيين حتى استعادها نيسفورس الثانى عام ٩٦١.

ولقد ذكرت فى كتابى «قصة الحديد فى مصر - ١٩٦٧» أن الحضارات القديمة التى نشأت فى الأودية، وكان خير مثال لها الحضارة المصرية القديمة فى وادى النيل، بدأت تسير فى طريق الانهيار على يد الغزاة الذين عجزوا عن أن يقيموا حضارة فى بلادهم الأصلية التى كانت تفتقد الأنهار الكبيرة. وما أدراك ما الأنهار الكبيرة؟ فهى المهد الأول للحضارة.. حولها يزرعون، وفوق مياهها يسافرون، ومن أسماكها يأكلون، وفى سمائها لحم طير مما يشتهون، كان ذلك متمثلا أفضل تمثيل فى وادى النيل، لذلك فقد غزته على مراحل زمنية متفاوتة جحافل من البرابرة الغزاة فى موجات تتلوها موجات، ومع تدهور المجتمع الحضارى فى وادى النيل أخيرًا، ما كان بإمكانه أن يقاوم تدفق تلك الموجات طويلا. ولقد كان العامل المساعد والقوى لغزاة الحضارة فى وادى النيل - بجانب تدهورها الاجتماعى والفكرى - هو اكتشاف معدن الحديد، ذاك المعدن الذى أتى بعصر جديد فى تاريخ البشرية، بعد انقضاء عهود وعصور الحجر والنحاس والبرونز.. ويرجح بعض المؤرخين أن خام الحديد قد صهر لأول مرة وبكميات قابلة للاستخدام فى مكان ما بجزر البلقان، ويرجح أن تكون جزيرة كريت بالذات، فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، ثم شاع استعماله فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد، وكان لاكتشاف الحديد وتصنيعه إذن، الفضل فى تقويض الحضارات القديمة.. ومنها حضارة وادى النيل.. إذن فها أنتِ يا كريت التى من المحتمل أن تكون الأسلحة الحديدية التى نقلت إلى مصر، جاءت عن طريقك.. ولكنه زمان.. وماذا كانت تفعل الأسلحة، لو لم يكن هناك انهيار

اجتماعى.. فالأمراض القاتلة تنشأ من الداخل دائمًا.. درس يجب أن نعيه..

وأعود أنظر من عل، إلى البحر المتوسط، هذا البحر الذى شبهوه بالرجل المريض، لكثرة ما به من تلوث بيئى. فلقد اتضح أن كل المدن المطلة عليه من القارات الثلاث، التى يتوسطها - وهى آسيا وأوربا وأفريقيا - كل المدن الكبيرة تصب فيه مجاريها وفضلاتها، مما أثر على الحياة فيه، وكادت أن تكون معدومة تمامًا، ناهيك عن كونه من أهم معابر البترول من الشرق الأوسط، حيث المنابع الكبرى، إلى قارة أوربا حيث المستهلك الأكبر. وكل ناقلات البترول العابرة لهذا البحر، تصب فيه فضلاتها، وتغسل فيه خزاناتها بما تملؤها من ماء البحر، عوضًا عن البترول بعد تفريغه، ليحفظ للبواخر توازنها. هذا البحر الذى يعتبر أكبر بحر يتوسط ثلاث قارات، تبلغ مساحته حوالى ٥٥٥٠ ٢٩٦ كيلو مترًا مربعًا، ويمتد حوالى ٣٧٠٠ كيلو متر طولاً و ١٩٣٠ كيلو مترًا عرضًا، ويصل عمقه إلى نحو ٤٤١٢ مترًا فى بعض أجزائه. يصله مضيق جبل طارق بالمحيط الأطلنطى، ويتصل بالبحر الأسود عن طريق الدردنيل وبحر مرمرة والبوسفور، كما يتصل بالبحر الأحمر بقناة السويس..

وأحاول أن أمدَّ البصر إلى أقصى ما أستطيع ، لعلى بالغ أحد شواطئه المطلة عليه وهى جبلية فى الغالب، فيرتد إلىَّ البصر خاسئا وهو حسير.. وتتوه نظرتى فوق ذلك اللون اللازوردى، الغالب على كل ما أرى من مقعدى فى الطائرة، على ارتفاع قرابة ٣٥ ألف قدم.

مياه هذا البحر المتوسط أكثر ملوحة من مياه المحيط الأطلنطى وتفاوتات المد والجزر فيه غير كبيرة على الإطلاق. ولقد عززت قناة السويس (١٨٦٩) أهميته التجارية بجانب ما كان له من أهمية تجارية قديمة.. ومكانة استراتيجية غير منكورة. فقد نشأت على سواحل هذا البحر المتوسط الذى نطير فى سمائه الآن، أهم حضارات الإنسان، والقديمة بالذات: المصرية والإغريقية والرومانية والعربية، ثم الحضارة الآنية الأوربية. وتطل على هذا البحر، من شاطئه الجنوبى والشرقى دول عربية كثيرة، ومن شاطئه الشمالى دول أوربية عديدة، كما تتناثر فيه عدة جزر هامة، منها قبرص ورودس وصقلية ومالطة وسردينيا والبليار، والجزيرة التى مازالت على مرمى البصر.. كريت.. والبحر المتوسط هذا الذى مازلنا فى سمائه، لم يكن هكذا وبهذا الحجم، منذ كان فى بداياته الأولى. وإنما البحر المتوسط الحالى هو بقية من بقايا بحر كبير قديم، يسمى بحر «التيثز»، الذى كانت تمتد شواطئه الجنوبية فى قارة أفريقيا إلى مستوى أسوان الحالية فى أرض مصر أو شمالها قليلاً.. وهو كان انفتاحًا، أو بحرًا داخليًّا، بين قارتين عظيمتين أوليين هما: قارة أوراسيا وقارة بانجيا..

وشىء عظيم حقًّا أن يرتفع الإنسان ويرتفع، ليستطيع أن ينظر إلى الأرض بعين طائر، فيرى من الصورة أكثر بكثير مما يستطيع الواقف على الأرض أن يرى.. نحن نقول لطلابنا: إن ٧١٪ من سطح الكرة الأرضية مغطى بالماء، وإن ٢٩٪ فقط منه هو اليابسة.. واليابسة قارات.. ولعلى من مكانى هذا، فى مقعدى هذا، أمام نافذتى

الصغيرة المستديرة هذه، فى طائرتنا المصرية العابرة للبحر المتوسط، أستطيع أن أرى، وإن لم يكن بعين اليقين، فبعين الخيال.. التقاء القارات الثلاث التى تحيط بالبحر المتوسط.. بل إننى أكاد ألمح من بعيد، ذاك الشاطئ الذى نقربه، وهو بالقطع شاطئ القارة الأوربية.. ولعلى ياعزيزى القارئ، أحدثك عن القارة، وما تعنى.. فالقارة هى أكبر وحدة من كتل اليابسة. والقارات على الأرض، ست بل هى خمس مع جمع الأمريكتين معًا: أوراسيا (أوروبا وآسيا) وأفريقيا والأمريكتين، وأستراليا، ثم القارة المتجمدة الجنوبية (انتراكتيكا).

ولقد قيل فى نشأة القارات، نظريات، أستميحك عُذرًا، أيها القارئ، فى أن أحدثك عنها. فالحديث عنها بعض تخصصى فى علوم الجيولوجيا.. فلعلها إذن رغبة ملحة أن أتحدث، ولعلها عوامل نفسية أن أخرج ما فى صدرى.. ومادمنا معًا، ومادمت قد أشركتك معى رحلتى، فصبرًا جميلاً.. والله المستعان..

يقول العالمون بعلوم الجيولوجيا اجتهادا: إن الأرض، كوكب الأرض، إنما هى عناصر تجمعت، فانضغطت فسخنت فانصهرت. أو إن الأرض قطعة من الشمس المشتعلة، وانفصلت.. أيًّا كانت بدايات القصة، وعلم ذلك عند ربى، وربى قال: ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض﴾ لكنه أيضا القائل: سيروا، وتفكروا، وتدبروا، وانظروا وتأملوا.. ولا تكونوا مُضلِّين، فما كنت متخذًا المضلين عَضُدًا.. الخلاصة، أن علينا أن نفكر، ولا حرج على العقل أن يمضى إلى أبعد ما يستطيع دون الشطط.. فالعلم إن صدق، إيمان.. ومن هنا،

أحدثكم بما قالت به النظريات العلمية، ولا استشعر حرجًا، ولله الأمر من قبل ومن بعد..

إحدى هذه النظريات، تقول فى شأن نشأة القارات: إنه مع انصهار مادة الأرض نشأت فيها تيارات حمل، صاعدة عند القطبين، هابطة عند خط الاستواء. ونشرح ذلك فنقول: إن المتأمل لقدْرٍ به ماء يغلى، وبهذا الماء قدر من نشارة الخشب، يرى تلك الأخيرة وهى صاعدة هابطة مع استمرار الغليان. وهى إنما تصعد إلى السطح فتبرد، فتعاود الهبوط - كلها أو بعضها - إلى الأعماق فتزداد حرارة، فتصعد من جديد، وهكذا دواليك.. ولكنها فى النهاية ستترك بعضًا منها - الأخف وزنًا - على سطح الماء، لا يشارك فى لعبة الهبوط ثم الصعود ثم الهبوط.. وهكذا.. يمثلون الأرض فى انصهارها كذاك الوعاء.. ويقولون: إن بها أيضًا تيارات حمل تصعد بالمادة. إلى السطح فتترك أخفها - أو خبثها - ثم تعاود الهبوط ثم الصعود.. وهكذا.

والخلاصة أن قدرًا كبيرًا من خبث الأرض - أخف المواد بين مكوناتها، سيبقى متجمعًا متكتلاً فى كتلة واحدة عند سطح الأرض، ثم هو يبرد، وبتكرار التجمع يرتفع ويرتفع، فيكون الجزء اليابس فى محيط خضم هائل من تجمع المياه التى تملأ منخفضات الأرض.. وهكذا، صار هناك يابسة مرتفعة تكون ٢٩٪ من مساحة سطح كوكب الأرض، وصار هناك ٧١٪ من سطح الأرض منخفض تملؤه المياه.. وصار ذاك التجمع اليابس الأول، هو القارة الوحيدة على

سطح الأرض وأسموها قارة «بانجيا».. ثم هم يستطردون: وتلك القارة الوحيدة قد تصدعت فيما بعد، باستمرارية تيارات الحمل، تلك التى كانت تصطدم بتلك الكتلة اليابسة من أسفلها، فهى محمولة على مادة لينة منصهرة لم تزل.. أو أن تلك القارة الوحيدة قد زلزلت زلزالاً عنيفًا أدى إلى تشققها إلى قطع منفصلة، وصارت تلك القطع المنفصلة تطفو فوق مادة قاع المحيط، أو تغوص تحته قليلاً، كما تطفو السفن فوق الماء، ثم إن تلك القطع والحال كذلك، قد تعرضت للتزيح أو الإنزلاق البسيط والبطئ المستمر فى اتجاهات محددة خلال الأزمنة الجيولوجية السحيقة القدم (آلاف من ملايين السنين). وتعرف هذه النظرية بنظرية «التزيح القارى» وواضعها هو ألفرد فيجنر (١٨٨٠ - ١٩٣٠) وهو جيولوجى ومستكشف ألمانى مشهور برحلاته القطبية، وأهم كتبه «أصل القارات والمحيطات - ١٩١٥».

وطبقًا لهذا الكلام، فإن القارات التى نراهااليوم ونعيش عليها، إنما نشأت فى مكان آخر غير الذى توجد عليه اليوم. وأن تلك القارات تتزحزح، وأنه بالضرورة، فإن تلك الزحزحة تفتح بحارًا، أو تزيد من اتساعها، وتغلق بحارًا، أو تقلل من مساحتها.

ولقد أثبتت الدراسات العديدة، أن ذاك كائن بالفعل. وأن فى منطقتنا يزداد اتساع البحر الأحمر، فى حين يضيق البحر الأبيض طبقًا لقياسات ثابتة وأكيدة.. أى أن القارة الأفريقية تتزحزح باتجاه دوران عقارب الساعة، ومن ثم فهى آخذة فى إغلاق البحر المتوسط، ولا ينتظرن أحد من البشر، أن يرى ذلك أو يلمسه، فأين

أعمارنا من الأزمان الچيولوجية التى تتم عبرها تلك العمليات الكبرى على سطح الأرض.

أما النظرية الثانية يا عزيزى القارئ فى نشأة القارات، فهى ما تسمى بنظرية الدروع، والخلاصة أن كل سطح الأرض قد تغطى بالماء - أول ماء تنزَّل على الأرض - ما عدا عدد مما يمكن أن نسميه تجاوزًا بالجزر المرتفعة فوق سطح الماء.. تلك الجزر كانت من صخور نارية صلبة جامدة كالدرع الواقى فى خضم المياه المتلاطمة التى غطت سطح الأرض كله إلا أقله، ممثلاً فى تلك الجزر الدروع.. ثم بعوامل التعرية والتجوية والنقل والترسيب التى بدأت تعمل على تلك الجزر الدروع، ارتفع قاع المحيط أو البحر من حولها.. وشيئًا فشيئًا، صار من حول كل جزيرة أو درع، واحد أو أكثر من واحد، قارة من قارات اليوم..

وطبقًا لهذه النظرية، فإن القارات الخمس الموجودة اليوم - وعلى عكس النظرية السابقة - قد نشأت فى مكانها الذى هى عليه، وأنها نشأت منفصلة عن بعضها البعض، وأنها نشأت تحت الماء من حول الجزر الدروع كما قلنا..

وهكذا لا يتفق العلم حتى الآن فى ذاك الأمر، لأنه أمر غيبى، ولأن العلم يتبع فيه ما يسمى بالمنهج الاستردادى.. أى مشاهدة واقع اليوم، والانطلاق منه خطوة خطوة على ضوء ذبالة خافتة من المشاهدة والاستقراء والاستنتاج، إلى سراديب الماضى البعيد،

المظلمة، والمتعرجة.. ولكن العلم لا يعرف المستحيل وهو ماضٍ إلى ذاك الماضى ليفك طلاسمه، ويحل ألغازه، وينفذ من أقطاره، بسلطان من صاحب السلطان..

لعلى أثقلت عليك يا قارئى بهذا الحديث..

ولكن لعله من حسن الطالع، أنه بعد أوبتى من هذه الجولة الفكرية، والسبحة الخيالية، تصل سمعى تلك الإشارات الموسيقية من قائد الطائرة أو رفاقه، ويصل ذاك الصوت الحانى الصديق ليقول: نحن الآن فوق قمة مونت بلان بجبال الألب.. وإذا نظرتم من جهة اليسار فستجدون القمة ومن حولها قمم أخرى مغطاة بالجليد تمامًا أو معممة به، وفيما بينها تبدو الأودية رمادية اللون أو داكنة، ولعلكم لو دققتم النظر لرأيتم بعضَ المعالم التى قد توحى بمدائن أو قرى فى وسط تلك الوديان..

مرة أخرى لا أجد من الفكر الجيولوجى فِكاكًا..

وكيف يكون ذلك؟! وأنا جيولوجى، وتلك ظاهرة جيولوجية قرأناها وعلّمناها طلابنا من خلال صفحات الكتب، وها هى الظاهرة كلها تحت بصرى، وعلىّ أن أتأمل وأفكر.. فى دراساتنا الجيولوجية ذهبنا إلى الصحارى، سرنا فى الأودية، تسلقنا الجبال، صعدنا الهضاب، وانحدرنا مع المنخفضات، ولكن ها هى الفرصة لأرى الجبال - سلاسل الجبال - من ارتفاع ٣٥ ألف قدم بنظرة أشمل وأوعى..

ووجدت نفسي أقول بصوت مهموس.. شكرًا لك ياقائد طائرتي.. شكرًا لك يا من بجانب عملك على راحتنا وإسعادنا، وإطعامنا وملء البطون فينا بما تقدمه مضيفاتك المرة بعد المرة من مشروبات ساخنة وباردة، وعصائر متعددة الصنوف والألوان- أقول شكرًا لك، فقد نال إشباع العقول من اهتمامك الكثير أيضًا.. فما من علامة على الأرض بارزة، أو ظاهرة ملفتة، ابتداء من أهرام الجيزة عند بداية رحلتنا، وحتى قمة مونت بلان هذه، وهو يشير علينا بملاحظتها، ولا يبخل بما لديه من معلومات عنها.. وهكذا يكون كرم الضيافة. وماذا وكيف يكون إن لم يكن كذلك؟ إشباع للبطون وللعقول في آن..

هذه إذن جبال الألب.. وأعاود النظر من جديد..

إنها كتل برية أو من يابس القارات، لا تستوى الأرض فيها إلا قليلًا عند القمة.. وهي ككل الجبال، غالبًا ما توجد في مجموعة أو صف- إما على شكل حيد واحد مركب، أو سلسلة من الحيود المترابطة. وإن يكن هذا لا يمنع من تواجد بعض الجبال المنعزلة. هذه إذن أمام عيني، الصورة كاملة ومكتملة وواضحة لمجموعة جبال الألب، وحين أقول مجموعة، فإنما أعنى عددًا من الصفوف الجبلية المترابطة من حيث الشكل والأصل.. وهي قد تتطور في بعض أماكنها إلى سلسلة جبلية، بمعنى عدد من مجموعات الجبال التي تشغل منطقة عامة بعينها..

هذه أنت يا جبال الألب، تحت سمعي وبصري..

وهذه أنت يا جبال الألب، أكاد أشمل كل أطرافك بنظرة واحدة..

وهذه أنت يا جبال الألب، تمرين من تحتى مرَّ السحاب، وأنا أمتطى الرياح بين قممك ووديانك.. فمن أى أنواع الجبال أنت ياترى؟!

* يقينًا، فأنت جُلك لست جبالا بركانية، وإن يكن القليل منك كذلك..

* ويقينًا، فأنت بعض الحزام الأورآسيوى، الذى يضم جبال البرانس والألب وجبال البلقان والقوقاز وهندكوش والهيمالايا..

* ويقينًا، فأنت تضمين بين قممك واحدة من القمم المفردة المشهورة فى العالم.. قمة مونت بلان.. ولكن من أى أنواع الجبال أنت ياترى؟!

ومرة أخرى يشرد الذهن بعيدًا، ليستعيد ما علم من أصل الجبال ونشأتها... وبداية نقول بان هناك:

– جبالًا مفردة منعزلة..

– صنفًا من الجبال أو مجموعة، وهى عدد من الجبال المترابطة شكلا وأصلًا..

– سلسلة من الجبال، وهى عدد من المجموعات الجبلية، تشغل منطقة عامة بعينها..

– حزامًا من الجبال (كورديليرا) وهو مركب من صفوف

ومجموعات وسلاسل جبلية، وقد تشغل المساحة الكاملة لإحدى القارات..

أما أصل الجبال، فبعضها بقايا لهضاب نحتتها عوامل التحات، وبعضها الآخر، أصله مخروطات بركانية، أو تدخلات من صخور نارية، كونت قبابًا صخرية . وتتكون جبال الكتل الصدعية، نتيجة رفع كتل ضخمة من سطح الأرض بالنسبة للكتل المجاورة لها. وكل السلاسل الجبلية، إما أن تكون جبال طى، أو تراكيب بنائية معقدة، دخلت فى تكوينها عوامل الطى والتصدع والنشاط النارى، ومعظمها يتعرض للرفع الرأسى بعد حدوث الطى، والطى معناه، أن تكون فى مكونات القشرة الأرضية طبقات من صخور رسوبية متخذة الوضع الأفقى العادى، ثم تتعرض تلك الطبقات الأفقية لضغوط كبيرة، وشديدة القوة، فتطويها.. ولا تعرف على وجه التحقيق الأسباب الأصلية للحركات الأرضية التى تؤدى إلى هذا الطى، والمسئولة من ثم، عن بناء الجبال، بفرض أن الطى، سيكون إلى التحدب لا إلى التقعر.. ويوجد اليوم بعض التشكيك فى الفكرة التى سادت زمانا طويلا، والتى طالما اقتنع بها الناس، من أن الحركات الأرضية، هى مجرد تلاؤم القشرة الأرضية مع باطن الأرض المستمر فى الانكماش نتيجة استمراره فى البرودة، وفقد الحرارة.. وهناك فرض أحدث من ذلك فى هذا الصدد، يقول بان الحركات الأرضية، هى حركات إيزوستاتيكية، أى خاضعة بحفظ التوازن من حيث الثقل بين القطاعات المختلفة من قشرة الأرض.

نشرح ذلك فنقول: إن فيضان النيل كل عام، ومايحمل من

غرين وطمى، إنما هو نتيجة أمطار تتساقط على جبال بلاد حوض النهر (الحبشة، أوغندا، إلخ). تلك الأمطار تقتطع وتنحت، وتذيب وتحمل، من مادة تلك الجبال، ماتسافر به المياه فى النهر عبر آلاف الكيلو مترات، ليترسب على أرض مصر.. وإذن تكوَّن على أرض مصر، فى الوادى، عشرات الأمتار سمكًا من التربة الزراعية المنقولة من تلك البلاد فى حوض نهر النيل، فمعنى ذلك أنه قد اقتطع من جبال تلك المناطق مئات الملايين من الأطنان عبر السنوات الطوال.. فى ذلك لاشك إخلال بالتوازن.. أخذنا من هناك.. ورسبنا هنا.. خف الوزن هناك وزاد الوزن هنا.. فتكون عندئذ حركة أرضية إيزوستاتيكية تعمل على حفظ ذاك التوازن من حيث الثقل، بين مناطق منابع النهر، ومناطق مصبه.. هذه الحركة لا نحسها وإن كان لابد أن ندركها بالعقل.. وهى حركة بطيئة بطيئة وتدريجية، ككفتى ميزان، يؤخذ من هذه ويضاف لتلك ولكن بدقة وحذر وروية.. وقد يعاد توازن الكفتين فى مكان آخر من الأرض بحيث يبقى التوازن موجودًا للقطع المختلفة من القشرة فوق الطبقات الداخلية للأرض.. توازن بين التحميل فى مكان، والتخفيف فى مكان آخر، تدريجيًا وبطيئًا، ومن صنع الطبيعة. أما أن يكون التحميل مفاجئًا فهذا مالا يتيح الوقت للتوازن، وتحدث معه القلاقل والهزات والزلازل. ولعل ماحدث من عظم التحميل بتكوين بحيرة السد العالى، فاهتزت الأرض وتململت قليلا، أن يكون شاهدًا على مانقول..

وهناك فرض ثالث يعزو نشوء الجبال إلى ماهو معتقد من أن

القارات تنجرف أو تنزلق أو تتزيح فى اتجاهات معينة فوق مادة قاع المحيط (الجزء السفلى من مكونات القشرة الأرضية والذى له تركيب البازلت). ولكى تنجرف هذه القارات يقال بانها تطفو فوق مايشبه الألواح على مادة الباطن الساخنة البلاستيكية أو الثريدية القوام.. فتتجعد مقدمات تلك القارات نتيجة للاحتكاك والاصطدام والمقاومة الشديدة.. ويتمادى القائلون بهذه النظرية، فى شروحهم المؤيدة لفكرتهم، بقولهم: إنما جبال الألب التى نمر فوقها الآن بطائرتنا الميمونة، هى عبارة عن تجعدات فى مقدمة القارة الأوربية أحدثتها انحرافات قطعة من اليابسة كانت منفصلة فى بحر التيثز (جد البحر المتوسط). تلك القطعة هى ما صارت اليوم إيطاليا، انجرفت باتجاه قارة أوربا، فارتطمت بها، والتصقت، ونتج عن ذالك الارتطام تجعدات، هى مكونات جبال الألب الحالية.. وشاهد آخر ودليل يورده القائلون بتلك النظرية- نظرية انجراف أو انزلاقٍ القارات- ارتطام جزء من اليابس، كان فى المحيط الهندى منعزلًا عن القارة الآسيوية. ذاك الجزء هو ماصار اليوم شبه القارة الهندية، انجرف فاصطدم فارتبط بالقارة، ونتج عنه تجعدات فى مقدمة القارة، صارت جبال الهيمالايا التى نعرفها اليوم، بعد أن كانت طباقًا من طباق الأرض الأفقية.. وأصبح لها قمة من أعلى القمم المفردة المشهورة.. هى قمة إفرست التى تبلغ ٨٨٨٨ مترًا ارتفاعًا، وتقع على حدود التبت ونيبال، وهى تعتبر أعلى نقطة على سطح الأرض قاطبة، وسميت باسم سير جورج إفرست.

* * *

يا إلهى.. أهذه هى قصة الجبال على الأرض ؟!

وهى قصة تمتد جذورها إلى الأمس البعيد.. أمس الأرض لا أمس البشر.. وشكرًا لقائد طائرتنا الذى أتاح لى الفرصة لأنظر بعين طائر محلق على ارتفاع أكثر من ١٠٠٠ متر، إلى واحدة من أعظم سلاسل جبال الأرض...

فرانكفورت.. هيثرو

عندما ذهبت إلى مكتب شركة مصر للطيران بسور نادى الزمالك بالعجوزة، كانت خطة السفر فى ذهنى هى القاهرة - لندن - أدنبرة باعتبار هذه الأخيرة أقرب مدينة بها مطار، لنهاية المطاف، وحيث يعقد المؤتمر أوالندوة عن جيولوجية أفريقيا، بمدينة سانت أندروز فى شمال أسكتلندة.. وعندما أعربت عن رغبتى تلك لذلك الشاب الأسمر المهذب والمبتسم، الجالس خلف منضدة نظيفة أنيقة لامعة، وعلى يساره ذاك الجهاز العجيب ذى اللوحة التليفزيونية التى ترسل وتستقبل كتابة وبأقص سرعة ممكنة.. وفى مكتب للشركة يضارع، بل يتفوق على مكاتب كثيرة مشابهة فى أوربا وغيرها.. قلت:

- سيدى، أريد السفر إلى لندن، ثم أدنبرة.. على أن تكون بداية عودة الرحلة من جلاسجو..

- بكل سرور، تفضل بالجلوس، وسنرى..

- وبضربات سريعة ومتلاحقة، بأصابع مستجيبة تنبئ عن دربة وخبرة، ظهرت كتابات على لوحة ذاك الجهاز، أرسلت، ثم استقبلت

فى ثوان.. التفت إلى بعدها ذاك الشاب ولم تزل ابتسامته الودودة لم تفارق شفتيه، وقال:

– نأسف جدًا لأن طائرة لندن مكتملة العدد تمامًا.. وفى هذا اليوم الذى رغبت السفر فيه بالذات..

وكانت الفترة الباقية على انعقاد الندوة، لا تسمح بتأخير طويل. ولما أنبأته بما يدور فى ذهنى، طمأننى سريعًا.. ستسافر إن شاء الله، وستدرك الندوة من بدايتها.. لدينا طائرة فى الغد إلى فرانكفورت، سأحجز لك عليها مكانًا. ومن فرانكفورت إلى لندن على طائرة ألمانية تغادر مطار فرانكفورت بعد وصول طائرتنا بحوالى الساعتين، وتستغرق المسافة إلى مطار هيثرو ساعة أو نحوها.. ثم سأحجز لك فى نفس الليلة على طائرة إنجليزية «ميدلاند» من لندن إلى أدنبرة التى تصلها فى حوالى الساعة العاشرة مساء، إن شاء الله وبسلامة الله..

والحقيقة لقد كان كلام هذا الشاب فى مكتب شركة مصر للطيران بسور نادى الزمالك، مبشرًا ومطمئنًا، فقلت له على الفور على بركة الله.. وفى دقائق كان يسلمنى تذاكر السفر، ويشد على يدى متمنيًا لى رحلة سعيدة.. إننا والله شعب متحضر، لو لم تكن الظروف ضاغطة..

وبقدر ما كان هذا إنجازًا طيبًا من موظف شركة مصر للطيران، بقدر ما سبب لى بعض القلق والتوتر فى اثناء رحلتى، فمثلاً، فى مطار القاهرة، تأخرت الطائرة عن الإقلاع فى موعدها المحدد بحوالى ساعتين.. وكما قيل، فإنه كان لأسباب خارجة عن الإرادة ولكن

حقيقة، ما يجب أن يكون ذلك، وهو ما لا نجد مثله فى أسفارنا بالخارج.. فدقة المواعيد أمر محسوب، على حضارات الأمم والشعوب، واحترام الوقت أمر لازم، بل فرض عين، فكم من خلق الله وقتهم محسوب عليهم، ولمواعيدهم ما بعدها من ترتيبات وضرورات، ولعل ذاك هو نفس الشيء الذى حدث لنا فى العودة من مطار هيثرو بلندن.. فبعد أن أكدنا الحجز بمكتب الشركة - شركة مصر للطيران بشارع ريجنت بلندن - وعرفنا موعد ذهابنا للمطار بالدقيقة والثانية.. وذهبنا فعلاً فى يوم السفر فى نفس الموعد.. ووزنت حقائبنا.. ودخلنا من الجوازات إلى صالة السفر، وبدأنا ننتظر مع العد التنازلى، ظهور اسم شركتنا على الشاشة الضوئية فى الصالة، بين الأسماء العديدة والكثيرة لشركات الطيران الأخرى، والتى يقرب موعد إقلاع طائراتها.. إذ بنا نفاجأ نحن ركاب الطائرة المصرية، باللوحة المضيئة تنبئ عن تأخير إقلاع طائرة شركة مصر للطيران لمدة ساعتين كاملتين.. وساد هرج ومرج.. فلقد اتضح لى أن كثرة من الركاب المصريين، الذين تجمعوا فى صالة مطار هيثرو كانوا قد أبلغوا ذويهم بمصر، بموعد وصول الطائرة كما هو محدد سلفًا، فى حوالى الحادية عشر مساء.. وبعد هذا التأخير فإن منتظريهم سيعانون لا شك من البقاء فى المطار - مطار القاهرة - حتى الساعة الثالثة صباحًا.. أمر مزعج بلا شك.. وهو ما نرجو شركتنا الكبرى أن تراعيه، محافظة على مكانتها بين شركات الطيران الأخرى، التى يحسب الوقت عندها بالثانية لا بالساعات..

ونعود إلى الوقت الضائع، فى انتظار إقلاع الطائرة، فى بداية

الرحلة من مطار القاهرة شعرت بأن الأمور لن تسير السير الحسن، الذى شرحه لى ذاك الشاب الرقيق، فى مكتب الشركة بسور نادى الزمالك. فطلبت المضيفة لأقول لها: إننى مرتبط بطائرة أخرى، ستقلع من مطار فرانكفورت، وهذا التأخير هنا معناه ضياع فرصة السفر عليها وفى هذه الليلة، وذاك يسبب لى إرباكًا بالقطع فى مواعيدى وإمكاناتى.. وبكل أدب ورقة، قالت لى المضيفة مبتسمة: سأبلغ «الكابتن» قائد الطائرة بذلك..

وبعد هنيهة من الوقت عادت لتقول: يبلغك القائد تحيته، ويقول: إننا لن نتأخر كثيرًا، وستلحق بطائرتك إن شاء الله، وإذا لم يحدث ذلك، فستبيت فى فرانكفورت على حساب شركتنا، وتكون لنا ضيفًا كريمًا فى هذه الليلة، فلا تقلق يا سيدى.

* * *

عندما تسلمت تذاكر السفر، وعرفت أننى سأهبط فرانكفورت، حاولت أن أعرف شيئًا عن تلك المدينة، كعادتى فى أسفارى.. فلجأت إلى دائرة المعارف، وإذا بى أمام مدينتين بهذا الاسم لا مدينة واحدة..

فرانكفورت أو فرانكفورت أم مين، وهى مدينة فى هس بألمانيا الغربية على نهر السين، مركز تاريخى وثقافى وصناعى وتجارى ومالى، ومركز للنشر كذلك، كما هى ميناء نهرى كبير، تنتج المواد الكيماوية، والأدوات الصيدلية، والآلات والاجهزة الكهربية، والملابس، وبها جامعة افتتحت فى عام ١٩١٤، ولقد انشئت فرانكفورت هذه فى

موضع بلدة رومانية، وكانت مقرًّا ملكيًّا فى عصر الكارولنجيين، ومدينة إمبراطورية حرة من عام ١٣٧٢م. وكانت فرانكفورت هذه كذلك، مقر انعقاد الانتخابات الإمبراطورية من عام ١٣٥٦م، وكان الأباطرة المنتخبون يُتوجون فى كنيسة سان بارثلميو، وعلى أثر حفلة التتويج، يتقدم الإمبراطور وسط موكب فخم من مواكب العصور الوسطى، إلى مأدبة تقام فى قصر البلدية. زاد من رخاء فرانكفورت، إقامة المعارض نصف السنوية والتى ذكرت لأول مرة فى عام ١٢٤٠ م والتى تقام الآن مرتين كل سنة، ولعب اليهود دورًا كبيرًا فى نموها التجارى، وفيها نشأت أسرة روتشيلد الثرى اليهودى، قبلت فرانكفورت الإصلاح الدينى فى عام ١٥٣٠ م، وكانت عضوًا بعصبة شمالكالدن (١٥٣٦ - ١٥٤٧)، وهو تحالف الأمراء البروتستانت الألمان، والذى تزعمه فيليب دوق هس، وجون فردرك الأول دوق سكسونيا، وهى العصبة التى سحقها الإمبراطور شارل الخامس (١٥٤٦ - ١٥٤٧) بانتصاره المبين فى ميهلبرج. وتنتسب العصبة إلى مدينة شمالكالدن بثورنجيا فى وسط ألمانيا، وهى منتجع صحى تكثر به الينابيع المعدنية..

ونعود إلى فرانكفورت أم مين، فنستبين أنها كانت مقر التحالف التعاهدى الألمانى (١٨١٥ - ١٨٦٦) وفى ١٨٤٩ اجتمع برلمان فرانكفورت فى كنيسة القديس بولس بالمدينة لوضع مشروع توحيد ألمانيا، فوضع دستورًا فدراليًّا (استبعد فيه النمسا) وقدم التاج الإمبراطورى إلى فردرك وليم الرابع ملك بروسيا، ولكنه رفضه،

ففشل المشروع كله، وانحازت فرانكفورت إلى جانب النمسا فى حرب النمسا وبروسيا، فضمت إلى بروسيا ١٨٦٦ وأدمجت فى مقاطعة هس - نساو. وفى الحرب العالمية الثانية دُمر معظم المدينة وبعد الحرب أصبحت مقر القيادة العليا لقوات الإحتلال الأمريكية. وقد أعيد بناء الكثير من معالمها التاريخية مثل الرومر وكنيسة سان بارثلميو الكاثوليكية، وكنيسة القديس بولس البروتستانتية، وكذلك البيت الذى ولد فيه الشاعر الألمانى الكبير جوته أو يوهان فولفجانج فون جوته (١٧٤٩ - ١٨٣٢) وهو شاعر وكاتب مسرحى وروائى، ظهرت عبقريته فى ميادين شتى فى الأدب والعلم على السواء. تأثر فى مراحله المبكرة من حياته بجان جاك روسو والفيلسوف سبينوزا، الأول بحبه للطبيعة والثانى بإيمانه بمبدأ وحدة الوجود. إشتهر بعد كتابة رواية آلام فرتر (١٧٧٤) وإن كانت مؤلفاته ككل تقع فى حوالى مائة وأربعين مجلدًا، وهو يعتبر بحق أعظم أدباء ألمانيا.. ومن ثم، فلا مشاحة أن يكون بيته من أول البنايات التى أعيد بناؤها لتكون مزارًا وعلامة من علامات فرانكفورت..

تلك إذن هى فرانكفورت..

ولكنى أجد فى الموسوعة فرانكفورت أخرى..

إنها فرانكفورت - آن - در - أودر، وهى مدينة فى براندنبرج بألمانيا الشرقية على نهر الأودر. تُصنع بها الآلات والمنسوجات والسجق الفرانكفورتى. وُلد بها هينريخ فون كلايست (١٧٧٧ - ١٨١١) وهو أيضًا شاعر ألمانى، لم يكن سعيدًا فى حياته،

فانتحر. وتعتبر مسرحياته السبع من أعظم ما كُتب فى الأدب المسرحى الألمانى، تنفرد بحدة العاطفة، وبالمهارة الفنية، وبالشعر الجرى،،وتشتمل على «نزاع آل شروفنشتين (١٨٠٣)، والكوميدية الرائعة المسماة الإبريق المكسور (١٨٠٦)، ومسرحيته الخالدة أمير هومبورج (١٨٢١)». وهو أيضًا ألف قصة قوية، أسماها ميخائيل كوهاس (١٨٠٨).

إذن فهناك فرانكفورتان اثنتان..

وهما أيضًا فى بلد واحد، انشق على نفسه، فأصبح شرقيًّا فى بعضه وغربيًّا فى البعض الآخر..

ولكن دون شك، فإن فرانكفورت التى سأهبطها هى الأولى، فرانكفورت فقط، أو فرانكفورت أم مين.. فى ألمانيا الغربية.. وكم كُنت أود أن تتاح الفرصة لأتجول فى تلك المدينة الكبيرة، التى أصبحت اليوم مركزًا تجاريًّا عالميًّا هامًّا.. وكم كان اشتياقى أن أزور تلك الدار التى نشأ فيها جوته، لأرى وأتلمس واحدًا من مهابط العبقريات على هذه الأرض.. وإن كانت قراءاتى لروايته «آلام فيرتر» فى مطلع حياتى لم تترك لدىَّ انطباعًا جيدًا عنه..

* * *

وأعود إلى الطائرة، وقد راحت تبتعد عن جبال الألب.. وبدأت تلك العمامات البيضاء، التى تعممت بها القمم العالية من حول مونت بلان، تختفى رويدًا رويدًا.. وكان قد عاد الفضوليون من ركاب

الطائرة أو محبو الاستطلاع، - وكنت منهم - إلى مقاعدهم..

قالت روث:

- لماذا اهتممت كثيرًا، بجبال الألب وقمة مونت بلان؟!

فابتسمت لها، وأنا أقول: ربما بجانب أنه شيء جديد عليّ، فهو أيضًا يتعلق بتخصصي، فأنا جيولوجي..

- آه، فهمت سر هذا الاهتمام.. هل تعرف أنني أحب الجيولوجيا كثيرًا، وكنت أتمنى دراستها. وإن يكن هذا لم يمنع أن أقرأ عنها كثيرًا في قراءاتي الحرة.. وبينما أنا أتهيأ لحديث طويل معها، فذاك مجال تخصصي، وهو ما نعيد ونزيد فيه لطلبتنا كل يوم.. وشيء ما في نفسي طفا فجأة إلى السطح، كأنما أنعشه وجود مجال لحديث، أصول فيه وأجول أمام سيدة جميلة، وأجمل من جمالها، رغبتها في الاستماع.. أقول بينما أنا أتهيأ في استمتاع لذلك، إذ بالطائرة تهتز هزات عنيفة متلاحقة جعلتنا نذهل عما نحن فيه، وأصابت الجميع بفزع رهيب، هزتهم في مقاعدهم، وألقت بما في أيديهم..

وإن هي إلا ثوان، حتى جاءنا صوت «الكابتن»: عفوًا لقد دخلنا «مطبًّا هوائيًّا.. ولكننا خرجنا منه سالمين، فالحمد لله..» و«المطب» الهوائي هذا هو تغير الضغط الجوي والذي يحدث بتغير الزمان والمكان، تبعًا لعوامل عديدة، منها اختلاف الكثافة باختلاف درجة الحرارة وكميات أبخرة المياه العالقة، وطبيعة الحركة، ويتبع هذه التغيرات اختلافات واضحة في الرياح وشدتها، فاختلافات

الضغط الجوى، من مكان لآخر، هى التى تعطى القوة الدافعة للهواء على الحركة..

* * *

ومرة أخرى تأتى الإشارات الموسيقية، لنستمع فى هذه المرة إلى صوت المضيفة تقول:

– بعد قليل، نهبط مطار فرانكفورت الدولى.. د رجة الحرارة فى خارج الطائرة تهبط إلى عشر درجات مئوية.. نرجوكم ربط الأحزمة مع الإقلاع عن التدخين حتى تهبط الطائرة بسلام..

ومن النافذة، أرى المدينة الكبيرة بأبراجها الفولاذية الداكنة وأبنيتها المرتفعة الشاهقة، التى تنغرس قبابها فى كبد السحاب، فلا تكاد تظهر.. وتدور الطائرة فوق المطار دورات، وألحظ من مكانى، جناح الطائرة يهبط، حتى لتكاد الطائرة أن تكون مائلة على جنبها تمامًا، فأتململ فى مقعدى، ثم يعود الجناح فى دورة أخرى للطائرة يرتفع فى الاتجاه المضاد.. كذلك ألحظ أن بالجناح فتحات، ترتفع عنها أغطيتها، ثم تعود تُغلق.. وفيما بين النظر إلى جناح الطائرة حينًا، والنظر إلى أبعاد المدينة حينًا آخر.. انقضت الطائرة فى رفق وهوادة، على أحد ممرات المطار الكبير الضخم، وما هى إلا برهة أو نحوها، حتى كان صوت ارتطام عجلات الطائرة فى لين وهوادة، بأرض المطار ،يحمل إلينا بشرى الهبوط سالمين.. وجرت الطائرة قليلاً، ثم توقفت أمام أنبوب ضخم ثبتت فتحته بباب

الطائرة، وفتح باب الطائرة ووقفت المضيفات على الباب يودعن المسافرين إلى الخارج ببسمة عذبة رقيقة، ولم يفت طاقم الطائرة فى الحقيقة أن يعلن علينا، أن على الذين سيواصلون سفرهم إلى لندن التوجه فورًا إلى بوابة رقم ٤٧١، فالطائرة فى الانتظار..

وقادنا الأنبوب الموصل ما بين باب الطائرة وصالة الوصول فى مطار فرانكفورت، والذى يعبره الراكبون، حتى لايتعرضوا للتقلبات الحرارية داخل الطائرة وخارجها - قادنا إلى بهو واسع رائع نظيف، تجرى فيه السلالم الكهربية وتملؤه الأضواء واللوحات الإرشادية فى نظام بديع، أرض المطار خارج الأبنية وداخلها لامعة.. جدرانه مطلية بطلاءات متناغمة متناسقة، حتى ليشعر الإنسان أنه أمام لوحات مجسمة فى قصر من قصور ألف ليلة وليلة.. ولم يمض كبير وقت ولا جهد، حتى وجدنا أنفسنا أمام البوابة ٤٧١. ولكن ما أدهشنى حقًا، هو أن أجد نفسى بين كل هذه الأعداد الكبيرة من الوجوه السمراء الآسيوية.. هنود وباكستانيين وأفغان و.. و.. وأفارقة.. إلى أين كل هؤلاء؟! لابد أنهم ذاهبون إلى لندن طالما تجمعوا أمام هذه البوابة.. وفى إنتظار إجراءات الجوازات، كان بجانبى شاب صغير الجسم ضئيل البنيان، له عينان سوداوان فى بياضهما صفرة، وله بشرة داكنة فى سمرة، تطفو على وجهه بثور يتكثف تواجدها عند وجنتيه، وله شعر كثيف لامع فوق رأسه.. نظر إلىَّ، فنظرت إليه، فسألته: من أين؟ أجاب: من باكستان.. وإلى أين؟ أجاب: إلى لندن.. قلت له:

وماذا تفعل هناك؟

إننى طالب فى كلية الهندسة، وأعيش مع أبى المهندس بمصانع النسيج فى يوركشير. ولقد كنت فى منطقة الخليج عند أقارب لى، أرتب أمورى للعمل هناك، فأنا سأنتهى من دراستى هذا العام، وآمل أن أعمل فى مجال البترول..

فنظرت إليه بدهشة وقلت: ولكنك تبدو صغيرًا، كم عمرك؟

قال: أنا فى الثانية والعشرين.. ألا يبدو علىَّ؟

وما اسمك؟

قال: أنا مسلم، أسمى محمد، والواقفة هناك أمى ومعها أخواتى البنات.. ونظرت حيث يشير، فإذا بسيدة ضئيلة الحجم، سمراء اللون فى دكنة، ومن حولها أربع بنات، يلتف السارى حول أجسادهن الضئيلة، وتمتد ضفائر شعورهن الناعمة حتى تحت أوساطهن.

هل هناك جاليات كبيرة من الآسيويين فى لندن؟

قال: ليس فى لندن وحدها، ولكن فى المملكة المتحدة كلها وبخاصة المناطق الصناعية منها..

وهل يا ترى تعاملون فى المدارس والجامعات، معاملة أبناء البلد، أم تعتبرون مواطنين من الدرجة الثانية؟

قال: الواقع لا نشعر بفارق فى المعاملة على الإطلاق، وأنا مثلا متفوق فى دراستى بكلية الهندسة عن زملائى أبناء البلد..

إنك تتكلم الإنجليزية بطلاقة، هل ولدت فى إنجلترا..

أبى يعمل فى يوركشير قبل زواجه، ثم عندما أراد الزواج، بحث عن واحدة من أبناء بلده، وكانت أمى هذه.. أما أبى فليس معنا، لم تكن عنده إجازة.. وأنا ولدت فى يوركشير، ولكننا كل عام نزور بلدنا فى باكستان.. هذا العام ذهبنا إلى الخليج عند أقارب لنا.. ونحن وغيرنا من المسلمين لنا عاداتنا وتقاليدنا، التى نعيش بها فى تلك البلاد.. ثم استطرد.. إننا نصلى، ونحافظ على الصلاة، ونصوم رمضان، ونؤدى كل الشعائر.. فوالدى متدين جدًّا، ونحن جميعا كذلك..

إذن فأنت تعرف القرآن؟
نعم، وأحفظ بعض سوره القصار..
هل تحفظها بالعربية؟
وهل تكون إلا بالعربية؟
فابتسمت له مشجعًا.. فاستطرد هو.. أتسمع؟!
نعم..
فقرأ.. ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. إذا جاءَ نَصْر الله والفَتْح..﴾ إلخ.

عند ذلك، جاء دورى فى تقديم جواز سفرى لرجال الشرطة الألمانية، وتمت مراجعته، وختمه، فالتفت إلى صديقى الباكستانى، وقلت له: السلام عليكم ورحمة الله.. ومضيت فى الممر الضيق عبر

الأنبوب الموصل إلى باب الطائرة.. وأيضًا كان مقعدى بجانب نافذة..

من النافذة نظرت.. لقد كان فى ضوء النهار، بقية لم تزل.. ولكننى لا أرى الشمس.. والطائرة بدأت تتحرك على أرض مطار فرانكفورت الدولى، ثم إن هى إلا لحاظ قلائل حتى ارتفعت بمقدمتها مارقة بين غيوم مدلهمة، مروق السهم فى الهواء.. ما زالت المقدمة ترتفع، ومازلت أشعر أننى أعبر منطقة دخناء، أو أننى فى حمام الملاطيلى مثلا بالقاهرة، وبخار الماء يملأ الجو من حولى فلا أكاد أرى من بجانبى.. وماتزال الطائرة مندفعة بمقدمتها إلى الأعلى، وما تزال الأحزمة تشدنا بوثاقها إلى المقاعد.. وهى لحظات تعتبر حرجة، تمنع فيها الحركة فى الطائرة ويمنع التدخين.. وبينما الصمت قد ران على الجميع، واللون الرمادى يحيط بالطائرة من خارجها ، فلا نكاد نستبين إلا بقعًا من الضوء، تناضل من أجل وجودها وبقائها وسط تلك الرمادية السائدة.. وقد ملئت القلوب بشىء بين الأمان والخوف فى آن، لا هو هذا ولا هو ذاك.. إذ بضوء الشمس يسطع من جديد، ويظهر لى قرصها المنير.. فكأنما هو حبل نجاة امتد لى فى بئر كنت أخشاه.. نصحنى أصدقاء كثيرون بألا أنظر من نافذة الطائرة فى أسفارى، تجنبًا لما ينتج عن ذلك من آثار نفسية أو حتى فسيولوجية.. فأحيانًا مع ارتفاع وانخفاض الجناح، أشعر بالدوخة وتبرد أطرافى وينضح جسمى عرقًا غزيرًا مع رغبة فى إفراغ ما فى بطنى.. وأحيانًا أخرى أصاب بخوف أو اكتئاب.. ولكننى أبدًا، أجد

نفسى ساعيًا إلى مقعد بجوار النافذة.. أقول: رأيت الشمس، فنحن متجهون غربًا، فى اتجاه الشمس الغاربة، ومن ثم فهى باقية معنا بعض الوقت. ولقد استبشرت برؤيتها، وارتاحت نفسى لذلك، مع أن وجودها أو عدم وجودها، لا يؤثر على الطيران فى شيء..

كان اختراق الطائرة لطبقات فوقها طبقات من السحاب الداكن الرمادى اللون، اختراقًا سريعًا. وكان ظهور الشمس بعد تلك الطبقات شيئًا مريحًا. ولكن ما بهرنى، وملك علىَّ كل مشاعرى بعد ذلك، هو رؤية هذه التشكيلات السحابية من فوق.. ولكى نستبين ذلك، علينا أن نعرف أن الغلاف الهوائى إنما هو الغلالة الشفافة التى تحيط «بالأرض»، وتفصل سطحها عن الفراغ الكونى السحيق. والغلاف الهوائى هو أحد أغلفة كوكب الأرض، المتمثلة فى غلاف مائى، وغلاف هوائى، وغلاف حيوى، ثم غلاف صلد، هو ما نطلق عليه تجاوزًا اسم الأرض.. وما هو بذلك، وإنما هو مجرد غلاف من أغلفة كوكب الأرض، وهم يقدرون لتلك الأغلفة أوزانًا تقريبية، باعتبار الغلاف الحيوى وحدة وزن، على النحو التالى:

الغلاف الحيوى لكوكب الأرض	وحدة وزن واحدة.
الغلاف الجوى لكوكب الأرض	٣٠٠ وحدة وزن (أى ٣٠٠ مثل الغلاف الحيوى).
الغلاف المائى لكوكب الأرض	٩٦١٠٠ وحدة وزن.

الجزء العلوى من قشرة الغلاف الصلد لكوكب الأرض $١٠^{٦}$ وحدة وزن.

ومنذ بدء الخليقة والغلاف الحيوى - الذى منه أنا وأنت وكل الحيوان والنبات - يعيش فى قاع هذا الغلاف الجوى، الذى يتركب فى مجموعه من الغازات التى لا طعم لها ولا لون ولا رائحة. وبالطبع يرتبط الحديث عن الغلاف الهوائى، ارتباطًا وثيقًا بما يحمل من بخار الماء. ذلك لأن غالبية الظواهر الجوية، ترتبط وثيق الارتباط بأبخرة المياه العالقة فى الهواء على هيئة غاز لا نراه، وإن تكن نسبتها قد تصل إلى نحو ٤٪ من حيث حجم الهواء. وتكون عادة نسب الغازات الأخرى المكونة للغلاف الجوى قريبًا من سطح الأرض، وحتى قرابة مائة كيلومتر ارتفاعًا، تكون ثابتة. ومرجع ذلك هو استمرار عمليات الخلط والمزج بين أجزاء الهواء وكتله المختلفة، فى الاتجاهين الأفقى والرأسى، تحت تأثير عوامل الانتشار، وتيارات الحمل، وهبوب الرياح، وانسيابها فى مسالكها العامة والمحلية.

ومع دوران الرياح، فإنها تحمل بين طياتها بخار الماء، الذى تنشأ عنه السحب والأمطار..

يا سبحان الله..

أكل هذه التشكيلات الرائعة التكوين، والتى تتبدى لعينى كجبال وهضاب، وأودية وتلال، يسودها اللون الرمادى بدرجاته المتفاوتات.. وإن تكن بعض قمم تلك الجبال والتلال، تتعمم بعمامات بيضاء فى بعض الأحيان. أقول.. أكل ذلك الذى أراه، إن هو إلا بخار ماء محمول بالهواء؟!

وتذكرت على الفور، قول ربى عز وجل، فى سورة الروم: ﴿الله الَّذي يُرسِلُ الرِّياح فتثير سَحابًا فيبسطُه فى السَّماء كَيف يَشاءُ ويجْعلُه كِسَفًا فترى الوَدْق يخْرجُ منْ خِلاله﴾. وقوله تعالى: ﴿فأنْزلْنا من السَّماءِ ماءً فأسْقَيناكُموه وما أنْتُم لَه بخازِنينَ﴾، ودار بخلدى أن ذاك القول الذى يربط هبوب الرياح أو إرسالها - ليتكاثف بخار الماء - بإثارة السحب ونزول المطر، جاء به القرآن الكريم منذ قرابة ١٥٠٠ عام.. فى حين لم تتنبه الحضارة الآنية إلى ذلك إلا فى القرن السابع عشر تقريبًا، حيث عرف العلم الحديث أن هناك «دورة مائية» ما بين البحار والمحيطات وجو الأرض، بمعنى أن أشعة الشمس تعمل على تبخير المياه، فتحمل الرياح تلك الأبخرة إلى أعلى، فتبرد فتتحول إلى نقط من الماء أو بلورات ثلجية، أوهما معًا داخل السحب... وبطبيعة الحال، فإن بخار الماء أقل وزنًا من الهواء الجاف، حتى أن الكثافة لكل منهما، تتردد ما بين ٥ إلى ٨ على التوالى. وهذا هو سبب تصاعد أبخرة المياه إلى الطبقات العليا من الغلاف الجوى، حيث تتجمع مكونة السحب، وبرغم أننى أرى السُّحب أمام عينى، من نافذة الطائرة، وفى أجواء القنال الإنجليزى «المانش» مابين فرانكفورت ولندن، طافية سابحة فى طبقات الهواء، بما يوحى بانعدام وزنها.. أقول إنه بالرغم عن ذلك، فإن الحقيقة هى أن السحب تتثاقل إلى الأرض، وأن لها أوزانا، لأنها مجموعات من نقاط الماء أو بلورات الثلج، أى أن مكونات السُّحب ليست فى حالة غازية كالبخار، وإنما فى حالة السيولة،

و الصلابة، مع تشبع جو السحابة تمامًا ببخار الماء، والذى يكون فى حالة تكاثف مستمر، بفعل عمليات التبريد الذاتى عندما يصعد الهواء إلى أعلى.. من هنا تكون عملية تكوين السحب مستمرة، ولذلك نراها، أو أراها الآن، طبقات فوقها طبقات.. إذ أن من السحب ما هو قابل للنمو أو التراكم فى الاتجاه الرأسى، مع تيارات الحمل الصاعدة، ولذا تعرف بالسحب الركامية. ومنها ما ينجم عن رفع طبقة من الهواء برمتها تدريجيًّا، بحيث تتكون طبقة من السحاب الطبقى. وعمومًا، فإن أغلب مكونات السحب تهبط متأثرة بجذب الأرض لها بسرعات تختلف باختلاف حجوم تلك المكونات، إلا أن تيارات الحمل التى تسبب التكاثف بالتبريد الذاتى، تعمل على حمل مكونات السحب ضد الجاذبية الأرضية..

ولقد قلت إن الطائرة حين إقلاعها من مطار فرانكفورت، قد انطلقت كالسهم فى كبد عدة طبقات أو أنواع من السحب، كنت أدرك تمامًا نهايات وبدايات كل منها.. ذلك لأن السحب تنقسم أيضًا إلى نوعيات ثلاث من حيث مناطق تواجدها فى الغلاف الجوى.

فلقد مرت بنا الطائرة فوق بحر المانش بسحب منخفضة ربما كانت قواعدها تتصل بسطح الأرض الذى منه أقلعت الطائرة.. لقد كانت أنوار المطار وقاعاته مضاءة تمامًا، بينما خارج المطار كانت السماء رمادية اللون تخفى وراءها ضوء الشمس.

ويسمون تلك السحب المنخفضة بالركام المزنى أو الطبقى.

والركام عمومًا «خلايا» أو وحدات سحب، تظهر فى شكل كسف أو كتل متفاوتة الحجم فى تكوين رأسى.

ولقد تلا تلك السحب المنخفضة، فى اختراق الطائرة إلى أعلى سحب أخرى متوسطة الارتفاع، مكوناتها بلورات من الثلج مع نقط من الماء. ومن تلك السحب المتوسطة، الركام المتوسط، والركام الطبقى، هذا الذى تبدَّى لنا على شكل كتل كروية متراصة فى صفوف متوازية، أو على شكل أمواج.. تتراوح فى ألوانها ما بين الرمادية والزرقاوية، تغطى أغلب السماء، وتحجب الشمس عنا تمامًا...

ومع استمرارية اندفاع الطائرة بمقدمتها إلى أعلى، وكنا مازلنا نربط أنفسنا بأحزمة المقاعد لم نزل.. ولم تزل إشارات عدم التدخين مضاءة.. لاحت لنا على البعد أشعة الشمس باسمة بعد كدر.. مشرقة بعد عبوس.. ومع ذلك فقد كنا نمرق مع الطائرة كالسهم فى السحب العالية.. تلك التى تتولد فى طبقات الجو المسماة بالتروبوسفير الوسطى والعليا.. ومكونات تلك السحب العليا من بلورات الثلج، ومن ثم، فلم تحجب عنا قرص الشمس الذى بدا لنا منيرًا، باردًا.. وتتمثل تلك السحب العالية فيما يسمى بالسمحاق الطبقى والركامى. وهى كما رأيتها من نافذتى فى الطائرة، سحب حريرية شفافة نوعًا ما، بيضاء اللون، لا ترمى ظلالا، وكانت تظهر فى مجموعات أغلبها على شكل خصائل، أو خيوط مفردة أو ملتوية.. إيه!!! تذكرت عندها أياما قضيتها فى قسنطينة بالجزائر الشقيقة، أستمع فيها لأغنية الشمس الباردة، وما كنت أعيها.. إذن فهذه هى



الركام المزنى أو الطبقى، والركام المتوسط ثم السمحاق الركامى.. طبقات من السحب فوقها طبقات اخترقتها الطائرة متجهة بمقدمتها إلى أعلى، حتى استوت فوقها جميعا*

الشمس الباردة يا مغنى الأغنية الشعبية فى الجزائر.

ماذا أقول؟!

لقد كان منظرًا عجبًا حقًا.. وبقدر ما مُلئت النفس بشىء بين الخوف والرهبة، ونحن نخترق تلك السحب، ثم بشىء من البهجة والسعادة ونحن نستوى بطائرتنا فوق تلك السحب جميعًا.. بقدر ما ملئت النفس والقلب معًا.. خشية لله وتقوى.. ووجدتنى فى تلك

اللحظات التى امتدت يد المضيفة الألمانية فيها لتسوى من وضع المنضدة المثبتة فى ظهر الكرسى الأمامى، لتضع فوقها صينية الطعام، وهى تشرق يبسمتها فى وجهى كأنما لتؤكد فى نفسى صفاءها بعد أن رأت نور الشمس فى سمائها.. أقول، وجدتنى أردد فى صوت لا يكاد يبين، قول الخالق سبحانه وتعالى فى سورة النور: ﴿ألم تَرَ أنَّ الله يزْجى سَحابًا ثم يؤلِّف بينَه، ثمَّ يجعلُه رُكامًا، فَتَرى الوَدْق يخرجُ من خِلاله..﴾ حقًا جلَّت قدرتك يا إلهى.

وانصرفت إلى طعامى..

وبعد الطعام، كان الشراب..

ولكننى لم أستطع مع ذلك أن أستخلص نفسى من التطلع إلى الشمس فى مغربها.. وما هى إلا لحظات، حتى سقطت عنا فى بئرها العميق، وأضيئت أنوار الطائرة.. وما عدت أرى إلا نورًا أحمر، يضوى فى خفقات متلاحقة عند الطرف البعيد لجناح الطائرة..

– عندها عدت إلى نفسى صامتًا، لا أتطلع من خلال النافذة، فما عاد هناك إلا الظلام..

– ولم يمض وقت طويل حتى أعلنت الإشارات الضوئية الانتباه... وقال الصوت النسائي الرقيق: دقائق ونهبط فى مطار هيثرو بلندن.. نرجو ربط الأحزمة، والإقلاع عن التدخين.. مرة أخرى أعاود النظر من النافذة، فإذا بأضواء لندن الكثيفة والمتسعة تتبدى أسفل منا.. وأشعر بالطائرة تقلل من ارتفاعاتها.. إنها تدور فوق المطار، ولن تلبث إلا قليلا لتهبط بسلامة الله.. فى مطار هيثرو.

أدنــبرة

.. نظرة أخرى من نافذة الطائرة.. فإذا الظلمة محيطة، لا تتبدى منها حتى نجوم السماء.. فالسحب الدكناء تغلف الأجواء.. ثم تنزلق النظرة إلى أسفل فإذا عقود من المصابيح الكهربية، تمتد لمسافات بعيدة.. تارة تبقى فرادى، وكثيرًا ما تتلاقى وتتشابك كغصون الأشجار، فيخيل للرائى كأنما هى غابة ممتدة من أشجار كثيفة تتدلى منها ثمارها.. صورة جميلة حقًا تعكسها فى صفحة السماء السوداء تلك المدن، حين ترى من علٍ، مضيئة ثرياتها، مضوية أنوارها..

ولم يستغرقنى طويل وقت فى تلك التأملات، حتى لمست عجلات الطائرة الألمانية أرض مطار هيثرو بلندن.. وبعد سماعنا لشكر قائد الطائرة لنا أن اخترنا شركته لنطير عليها، وأمله فى أن نكون قد قضينا معه وقتًا طيبًا، وبعد إعلامنا بدرجات الحرارة خارج الطائرة، وبعد أن تلقى كل منا قدرًا طيبًا من ابتسامات المضيفات وهن يؤكدن علينا بالبقاء فى أماكننا، حتى تقف الطائرة تمامًا.. بعد كل هذا، وبكل الهدوء والنظام فتحت أبواب الطائرة على الأنبوب الذى امتد إليها

من صالة الوصول، لنعبره إليها.. وخرجنا فى نظام دقيق، وعبرنا ذلك الأنبوب، وما إن خرجت منه، حتى وجدتنى فى صالات كبيرة، عريضة متسعة، نظيفة منسقة ومهندمة، على أفضل ما يمكن أن يكون، تشير اللوحات الضوئية فيها، إلى كل ما يخطر على بال المسافر أن يعرفه، ومن ثم فلا حاجة لسؤال ضابطات الشرطة الواقفات فى أبهى حلة يمسكن بأيديهن أجهزة اللاسلكى الدقيقة.. الحركة منتظمة، لا تداخلات ولا همهمات.. الكل يمضى فى طريقه.. والكل يمضى فى اتجاه واحد عبر طرقات، طويلة تشير اللوحات المضاءة فيها إلى الاتجاه الموصل إلى بوابة الجوازات.. على جانب تلك الطرقات، توجد الحصائر الحديدية المتحركة لمن يريد، تسير به دون تعب أو إرهاق. ولكن الناس من أمامى ومن خلفى، يمتطون تلك الحصائر، ثم هم يجرون من فوقها أيضًا. كأنما لا يكفيهم أنها تسير بهم، وإنما هى تتحرك بهم وهم من فوقها يهرولون..

وسألت نفسى: إذا كانوا هم فى سرعة من أمرهم هكذا.. فلابد أن أكون أنا فى سرعة أكثر. فالطائرة قد وصلت أرض المطار فى الساعة الثامنة والنصف مساء.. ثم إن علىَّ أن أنهى كل الإجراءات، لألحق بطائرة أخرى من المقرر لها - بحسب تذكرة السفر التى معى من القاهرة - أن تقلع من هيثرو إلى أدنبرة، فى الساعة التاسعة.. وبرغم أن الجدران مزدانة بالساعات عند كل انحناءة فى طرقات المطار، فإننى رفعت يدى تلقائيًا لأنظر فى ساعتى، وكنت قد عدّلت من عقاربها فى فرانكفورت لتتلاءم مع الوقت فى أوربا، بحساب

فروق التوقيت بينها وبين مصر.. ولدهشتى، وجدت أنه لم يتبق على موعد طائرة شركة ميدلاند البريطانية - الطيران الداخلى البريطانى - إلا عشرون دقيقة فقط.. وعلىّ فى هذه الدقائق، التى لن تزيد ولن تنقص، فأنا فى أرض قوم يعرفون للوقت حرمته، ويقدرون له قيمته، أقول على أن أعرض أوراقى على إدارة جوازات مطار هيثرو، حتى يعرفوا أننى دخلت بلادهم قانونيًّا، وبدون ذلك لن أغادر صالة الوصول، بطرقاتها المتعددة، التى يمتد من كل منها أنبوب إلى مكان خارج المبنى، تقف فيه الطائرات الهابطة، وما أكثرها، وما أعظم الحركة مع انتظامها، فى ذاك المطار.. وبالتالى ما أكثر المتواجدين فى صالة الوصول، المتسارعين فى الوصول إلى بوابات الجوزات..

وما إن أفقت من دهشتى، حين شددت بيدى على حقيبة تتدلى من كتفى، ورحت أسابق من يجرون على الحصير المتحرك، فكأنما كنت أقطع عشر خُطًا فى زمن خطوة واحدة. وفعلاً.. إن هى إلا ثوان، حتى وجدت نفسى فى صالة كبيرة متسعة، تتصدرها من الضلع المواجه، عدة مكاتب لرجال الجوازات.. ومرة أخرى لدهشتى، وجدت أنه يتحتم علىَّ أن أقف فى نهاية طابور من تلك الطوابير، المتراصة أمام كل نافذة مكتب، والبالغة عشرات الأمتار طولاً.. إن بينى وبين نافذة الجوازات، أكثر من مائة راكب. وبفرض حتى أن كلا منهم يستغرق نصف دقيقة لفحص أوراقه، إذن فأمامى خمسون دقيقة.. وطائرة ميدلاند، ستقلع بعد ثمانية عشر دقيقة.. ماذا

أفعل ؟ وتركت مكانى وذهبت إلى نهاية الطابور عند نافذة الجوازات، وحاولت أن أرجو صاحب الدور مبينًا له عذرى واضطرارى.. ولكننى سمعت من ورائه همهمات، وتبينت منها من يقول، كلنا عندنا أعذار.. ابق فى دورك.. يا إلهى، ماذا أفعل ؟. والإنسان تغلبه بشريته حتى فى ما يمكن أن نسميه بالمجتمعات الراقية.. وأسقط فى يدى.. ووجدتنى أتصبب عرقًا، فى جو لندن البارد.. إننى لن ألحق بالطائرة، ولى عليها مكان محجوز.. ثم إننى سأضطر للمبيت فى لندن وليس لى بها مكان محجوز.. وعذاب أى عذاب، أن يدور الإنسان فى شوارع أى مدينة كبيرة ليبحث عن مكان يبيت فيه دون سابق حجز.. وخاصة بعد الساعة العاشرة مساء.. بحساب الوقت الذى سأستغرقه فى إنهاء إجراءات المطار، والوصول إلى المدينة..

وبينما أنا أدور حول نفسى، وأدير فى رأسى الفِكرَ لعلها تسعفنى بما يجب فعله.. إذا بضابطة شرطة إنجليزية، مبتسمة الوجه، خفيفة الوزن، رشيقة القد، تطلب منى أن ألتزم بمكانى، ولا أقف هكذا فيما بين الصفوف، فى نشاذ وفوضى.. وكأنما هى أخرجتنى من دوامة الفكر المتخبط، لأنظر فى وجهها مليًّا، ثم أقول:

– سيدتى.. إننى على موعد مع طائرة ميدلاند المتجهة بعد خمس عشر دقيقة إلى أدنبرة، وقد حاولت أن أرجو السادة أن يفسحوا لى لأنهى أوراقى فى غير دورى فأبوا.. فماذا بالله عليك يمكن أن أفعل فى هذا الموقف؟.

قالت فى سرعة: تَذْكَرتك ؟؟.

- فمددت إليها يدى وبها التذكرة، وبطاقة السفر، وبطاقة الدخول وقد أكملت بياناتها.. ولما تأكدت من الموعد، قالت بابتسامة مشعة هادئة: لا عليك.. تعال معي.. وذهبنا إلى مكتب الجوازات، واستدارت إلى الواقفين تشرح لهم الظروف وتؤكد أنها اطلعت على البيانات، التى تؤيد أنه على عجل ليلحق بطائرة أخرى، ستغادر خلال دقائق معدودات.. ثم قالت: هل تسمحون؟! شيء جميل فعلاً، أن لا يخترق النظام حتى الشرطة ذاتها.. إلا باعتذار.. وسمح الواقفون.. وأنهيت الإجراءات، وشكرت لها صنيعها. وانطلقت إلى مكان استلام الحقائب.. المطار كبير.. كبير.. ولكنه حقًا فى غاية النظام والدقة.. قطعت طرقات طويلة، هبطت درجات عديدة، درت فى منحنيات يمينًا ويسارًا.. وأخيرًا ها هو المكان.. متسع، ممتلئ بالقادمين إلى لندن، تصب فيه العديد من «السيور» الآتية بالحقائب من الطائرات.. وذهبت إلى مكان كتب عليه «الطائرة القادمة من فرانكفورت» وانتظرت، وما هى إلا ثوان، حتى ظهرت أمامى حقيبتى السوداء وتأكدت من بطاقتى عليها، وسحبتها، وأنا فى عجلة من أمرى..

شعرت أن الوقت قد ضاق تمامًا..

وشعرت أن لا وقت لأبحث عبر اللافتات، أين أجد صالات الطيران الداخلى..

وشعرت أن من الأفضل أن اسأل فى أحد المكاتب التى أمامى، أين أجد مكتب طائرة ميدلاند المتجهة إلى أدنبرة؟!

وفعلاً سألت..

وحقًا، وجدت إجابة مهذبة رقيقة..

وجريت بأقصي ما أستطيع.. وكنت آخر راكب يدخل إلى طائرة، صغيرة، وأنيقة، عبر أنبوب غاية فى النظافة، وغُلِّقت الأبواب، وتحركت الطائرة، ونظرت فى ساعتى، إنها التاسعة تمامًا.. لا دقيقة قبلها، ولا دقيقة بعدها.. وابتسمت، لست أدرى لماذا؟

* * *

انطلقت طائرة ميدلاند بمقدمتها إلى أعلى، بعد أن تخلصت عجلاتها من أرض ممرات مطار هيثرو بلندن، فى طريقها إلى أدنبرة.. إلى سكوتلاندة.. إن أمامى مسافة قدرها نحو أربعمائة ميل أو قرابة سبعمائة كيلو متر ما بين لندن وأدنبرة، عاصمة سكوتلاندة.. مقعدى فى وسط الطائرة.. الطائرة صغيرة ذات صفين من المقاعد بينهما ممر. بكل صف مقعدان اثنان.. ولثالث مرة فيما يقرب من عشر ساعات، يقف أمامى مضيفو الطائرات ليشرحوا لى، ماذا أفعل فى الظروف الحرجة.. والظروف الحرجة هى مثلاً فى أخفها فَقْد القدرة على التنفس، وفى أصعبها اضطرار الطائرة للهبوط، أو.. السقوط..

سبحانك يا ربى..

ولم أزد عن أن رددت.. ﴿سبحان الَّذى سخَّر لَنا هَذا، وما كُنَّا لَهُ مُقْرنين. وإنَّا إلى رَبنا لَمُنقَلِبُون..﴾ ثم مددت البصر أقلبه فيمن حولى، رفاق الرحلة، رفاق السلامة، ورفاق الخطر كم فيهم من

أشتات الأرض البعيدة، وكم فيهم من قريبها.. ولكننا جميعًا فى حيز واحد، وهيكل معدنى واحد.. إن يشأ الله نصل بسلامته، وإن يشأ اختلطت دماؤنا وأشلاؤنا.. لا قدر الله..

وقلت همسًا، كما كان يقول أبى رحمه الله : سلمها لله.. ويفعل الله ما يريد..

لست بجوار النافذة لأمارس هواية النظر منها..

ومع ذلك فعن بُعد أتطلع، ولكن بحر الظلمات من حول الطائرة كثيف..

أسندت رأسى إلى ظهر المقعد الوثير والنظيف.. وكادت تأخذنى الأفكار بعيدًا، لولا يد رقيقة امتدت إلى بصينية الطعام..

آه.. انها ثالث مرة خلال ساعات، قلائل..

.. إنها ثالث مرة يُقدم لى فيها طعام الطائرات.. وما أدراك ما طعام الطائرات..

.. وإنها المرة الأولى التى اتناول فيها طعامًا مصريًّا، ثم ألمانيًّا، ثم إنجليزيًّا فى عشر ساعات.. ولست أدرى لماذا تبسمت، لما تذكرت، ما كان يقال فى قريتنا : «الفقى لما يسعد يلاقى سهرتين فى ليلة».. وأنا وجدت ثلاث موائد، مختلفة الجنسية فى ليلة.. ورغم أنى كنت متخمًا، فإننى مددت يدى أقلب ما أمامى، فجميعه مغلف بإتقان تكاد تحس أو تشم - أو لست أدرى كيف أعبر - النظافة فى كل مفردات المائدة.. وتذوقت من هذا وذاك.. ورُفعت الأطباق، ودارت

كؤوس الشراب.. جميع ذاك يحدث فى كل ما رأيت من طائرات. أما الذى لم أره من قبل، فهو أن يدور علينا المضيف ليقدم فوطًا من قماش خفيف، مبللة ببخار الماء الساخن والمعطر لنمسح بها على أيدينا، أو كما نشاء.. لقد كانت جديدة علىَّ تمامًا..

.. وتمضى الطائرة منسابة فى هدوء، سابحة فى بحر هادئ لا تنغصه أمواج ولا مطبات هوائية.. وأحسست برغبة قوية أن أتصفح وجوه من حولى، وأن أستطلع ساكنى المقاعد من أمامى ومن خلفى.. وبقدر ما استطعت، ودون أن أكشف عن فضولى، كانت الأحاديث خافتة بين رجل ورجل، أو رجل وسيدة، أو فتى وفتاة تعانقا فى صمت..

وصمت أنا أيضًا، ولكن فى حديث داخلى مع نفسى..

ومر الوقت فى غير بطء.. وفى هدوء، نُبِّهنا إلى أننا فوق مطار أدنبرة، وسنهبطه بعد دقائق...

* * *

كان علىَّ بعد أن خرجت من مطار أدنبرة، وقد أمست الساعة العاشرة تقريبًا، أن أبحث عن وسيلة تنقلنى إلى المدينة.. فالمطار -وأى مطار كما يعرف الجميع- هو مكان هبوط وإقلاع الطائرات، ويُفضل وجوده بمكان بعيد عن التلال والجبال والمدينة كذلك، حتى يتمكن بناء مهابط فى اتجاهات عديدة، يكون بمكنة الطائرات الإقلاع منها فى مختلف الاتجاهات تبعًا لحالة الرياح. معنى ذلك أن

بينى وبين المدينة، مسافة لن تقل عن خمسة كيلو مترات إن لم تزد.. خارج مطار أدنبرة هدوء كامل، وليل بارد، ورذاذ مطر يتساقط وقلة من الغادين أو الرائحين، وإضاءة هادئة لا تكاد تقوى على تشتيت طيور الليل السوداء، فتجدها متجمعة هنا وهناك ما بين أعمدة النور المتناثرة.. وسألت بعضهم عن الحافلات، فرفعوا حواجبهم فى دهشة، وإن غلب عليها الأدب الجم، وأشاروا إلى الساعة.. وهل فى مثل هذه الساعة حافلات.. وتذكرت بلدى مصر.. عاصمتها وعواصم محافظاتها.. الحركة فيها إلى ما بعد منتصف الليل..

وعرفت أن لا مفر من «تاكسي».. وذهبت إلى أماكن الوقوف فاقترب منى سائق، الله يعلم أنه شُبِّه إلى أنه مدير عام فى إحدى مديرياتنا العريقة.. أيام زمان طبعًا.. أو أنه وجيه من وجهاء عصر الانفتاح.. البدلة الكحلى، والكرافت الحمراء والمنديل فى جيب الجاكتة، والشعر مهندم ومصفف على آخر مودة.. وقال وهو يقف أمامى «زنهارًا» محتشمًا مؤدبًا: إلى أين يا سيدى؟! قلت: أريد نُزُلا متواضعًا فى المدينة، وبكل هذه «الوجاهة» مد الرجل يده إلى حقيبتى ليحملها عنى، وسارع يفتح لى باب سيارته الخلفى، فدخلت، وأغلقه، ليعود إلى بابه الأمامى فيضع الحقيبة بجواره، ويدير محرك سيارته ليمضى..

سيارة التاكسى هناك مقسمة قسمين.. القسم الأمامى للسائق والحقائب. والقسم الخلفى للراكب أو الركاب.. وبينهما حاجز لا يختلطان.. السيارة نظيفة، جميلة أنيقة.. كل ما فيها يوحى

بالاهتمام، وإن لم تكن جديدة..

وفى الطريق قال لى الوجيه.. السائق: آسف.. سيدى، تريد فندقًا من أى مستوى؟ قلت: وما المستويات هنا؟. قال: هناك فنادق تطلب مائة جنيه للحجرة فى الليلة، وأخرى ستين، وأخرى ثلاثين.. وقد أجد لك فندقًا يطلب خمسة وعشرين جنيهًا للحجرة فى الليلة.. وسأذهب بك إليه فورًا ومن أقرب السبل، ولعلك واجدٌ فيه ما تريد.. الشوارع خالية تمامًا، لا من المارة والمتسكعين فقط، ولكن حتى كل السيارات، قد توقفت على الجانبين.. الحركة نائمة تمامًا.. حتى البيوت أنوارها مطفأة.. يا إلهى كأنما نحن بعد الثانية صباحًا فى بعض بلادنا، ولا أقول فى عواصم بلادنا.. وكانت الفرصة متاحة أن أتطلع إلى تلك البيوت اللامعة تحت الأنوار الخافتة المتساقطة عليها مع رذاذ المطر.. والسيارة تقطع طريقها فى سرعة، ولكنها تتوقف أحيانًا توقفًا تامًا، أو تتمهل فى أماكن لا يحرسها شرطى -وما أندره- ولايحث السائق على مراعاة ذلك إلاضميره.. وإن هى إلا دقائق لا تزيد، حتى توقفت السيارة أمام نُزل انيق، واستأذن السائق فى النزول ليسأل عن بغيتى فى الفندق.. ثم عاد مسرعًا وهو يقول.. تفضل سيدى هنا ما تريد.. وحمل الحقيبة إلى الداخل وأوصلنى إلى موظف الاستقبال، فأنقدته ما طلب وانصرف..

* * *

فى فندق ستار بأدنبرة، أعطانى موظف الاستقبال بطاقة دونت فيها اسمى وبلدى ورقم جواز سفرى وجنسيتى، ثم سلمنى مفتاح

الحجرة المخصصة، وأشار إلى المصعد قائلاً: الدور الثانى من فضلك.. ولا تنس طعام الإفطار من الساعة السابعة حتى الثامنة صباحًا..

الحجرة أنيقة أنيقة.. لا تُنبئ أبدًا أنها من المستوى المتواضع الذى طالبت به. الحوائط مكسوة بالأوراق ذات النقوش الجميلة، الأرضية مغطاة «بالموكيت» الزاهى الألوان. الفرش وثير، ولا أقول نظيف فهذه كلمة غير واردة، طالما أنه لا يوجد مضادٍ لها. آنية الشاى والقهوة الكهربية، وأكياس السكر والشاى والبُن واللبن، حوض الماء الذى يكاد أن تنعكس عليه صورة وجهى، وأنا أستعمله. التليفزيون فى موضعه من صوان خشبى أنيق، عليه نقوش القرن الثامن عشر.. وبجوار السرير «كومودينو» صغير، وجدت فى دُرجه نسخة من الكتاب المقدس..

كنت حتى تلك اللحظة، قد قطعت ٢٩٥٥ ميلاً بالضبط أو نحو ٥٠٠٠ كيلو متر بمقياس المسافات.. وبالبلاد.. فقد قمت من قريتى البقاشين فى التاسعة صباحًا، إلى القاهرة، ومنها إلى فرانكفورت، ثم لندن، ثم أخيرًا، هأنذا فى غرفة فى فندق ستار فى أدنبرة، والساعة الآن الثانية عشرة مساء.. بعد أن توضأت وصليت، شربت كوبًا من الشاى، ولمست زرًا فى جهاز التلفزة فظهرت الصورة زاهية الألوان لملعب تنس، غيرت القناة، ولكن أيضًا كان هناك نفس الملعب واللاعبون والمتفرجون، فى حركة بطيئة وفى صمت إلا فيما ندر. أطفأت الجهاز وألقيت بنفسى فى سريرى..

وفى السابعة والنصف من صباح اليوم التالى، هبطت درجًا أنيقًا

نظيفًا مغطى بالسجاد المخملى، إلى الدور الأرضى، وهناك دلفت إلى قاعة الطعام.. القاعة ليست ذات اتساع كبير، ربما كانت عشرة أمتار فى سبعة أمتار.. تنتظم فيها المناضد اللامعة بفرشها الأخاذ، وقد صفت فوقها أدوات المائدة مغلفة بأكياسها الورقية.. ومن حول تلك المناضد، كانت أجمل ما فى القاعة تلك الوجوه النضرة المستبشرة الباسمة البيضاء فى حمرة، الباسمة اللامعة العيون.. شيوخ وشباب من الجنسين، لا تستطيع أن تفرق بينهم إلا بجهد جهيد.. الهدوء كامل، التدخين ممنوع، حركة السيدتين اللتين تقومان بالخدمة فى رشاقة رغم تقدم سنهما لا توصف، كحركة النسيم فى غير اعتلاله. نظافة السيدتين فى ملبسهما ومظهرهما، وتصفيف شعر رأسيهما، لا يوحى أبدًا بأنهما تقومان بالخدمة، بل لا يفرقهما عن غيرهما سوى المريلة البيضاء الصغيرة فى وسطهما.. الزهور تملأ المكان الرائحة ذكية بغير عطر، المطبخ المنفتح على القاعة، بنافذة لاتصلنا منه أية رائحة أو ضجيج.. جلست إلى منضدة خالية.. ولم ألبث إلا قليلاً حتى أطلت على بسمة هادئة، نمت عن أسنان بيضاء كاللؤلؤ تبينت من بينها همسة ناعمة تقول: صباح الخير سيدى.. ماذا تطلب.. ؟

شىء رائع حقًا، هو كالأحلام أو أقرب أن يكون..

إننى فى أعرق بلاد أوربا..

إننى فى عقر الحضارة الأوربية..

ويقول الناس: إن حضارة أوربا اليوم، مدنية لا حضارة.. وهم

يقصدون أن مدنية أوربا قائمة على العلم، أكثر مما هى قائمة على الانسانيات والروحانيات.. أو قل، هى عَلْمانية.. ويتمادى البعض ليقول، كل بحسب رؤيته وتجربته، ربما كانت مدنية لا أخلاقية، بمعنى أنه لا مكان للأخلاقيات فيها.. ولكننى أقول إنه لا توجد مدنية بغير أخلاق، وإلا لما قامت.. فلكل مدنية أو حضارة أخلاقها.. ولعل مفهوم الأخلاق هنا يختلف من مكان إلى مكان؛ ومن موقع إلى موقع.. ولعل الأخلاقيات فى هذه المدنية، تتمثل فى حسن الأداء، واحترام الوقت، وتقدير الموعد وحسن المعاملة، والتفانى فى العمل، والدقة فى الإنتاج، ومعرفة حدود الحريات،.. إلخ، مما يستلزم فى جملته حسن سير العمل، وانتظام عجلته، ومن ثم التفوق المادى، والإنتاج الكافى للاستهلاك وللتصدير معاً، إنه تكثيف فى العمل وفى الإنتاج، يتبعه تكثيف اكثر ومبالغ فيه، فى استغلال أوقات الفراغ.. ولذلك فأنت واجد فى تلك البلاد، الصدق فى كل شىء. ولئن قلنا فى الإسلام: الدين المعاملة.. نستدرك فورًا لنقول، وليتنا نتعامل كما يتعاملون.. ورحم الله القائل، وجدت هناك إسلامًا بلا مسلمين..

تناولت إفطارى وشربت الشاى وأنا أحاول أن أقرأ على تلك الوجوه الباسمة الناعمة، سطورًا من قصصها.. ذلك الشيخ الحانى على رفيقته يقدم لها هذا وذاك ويبسم فى وجهها، ويقوم ليضبط وشاحًا صوفياً على كتفيها.. ويملأ لها كوبها من كل هذا الحنان وتلك الرقة، من شيخ لرفيقته، لا نقول فتى تدفعه الرغبة دفعًا تحت إلحاح الغريزة.. وإنما بدافع الحب والتقدير والود لرفقة طويلة.. وهذان، فتى وفتاة.. هامسان، يتناجيان، يبتسمان، لعلهما محبان.. زوجان

أو صديقان، يكاد كل منهما أن يذيب نفسه فى فم الآخر.. ولكنهما فى واد غير الذى نحن فيه.. لا إزعاج ولا تدخل فى الحريات.. سبحان الله.. كل هذا القدر من البشاشة والطمأنينة والسعادة..

كان الجو – وقد قاربت الساعة على الثامنة والنصف – مازال فى عتمة الفجر عندنا.. بالكاد، أستطيع أن أميز الخيط الأبيض من الخيط الأسود.. ولكن الحركة فى الشارع نشطه، برغم رذاذ خفيف من مطر، دقت حجوم قطراته، حتى لا تكاد ترى، ولكنها تبلل الشارع، وتبلل المعطف فى الحال.. حملت مظلتى مفتوحة فوق رأسى وانطلقت أجوب شوارع هذا البلد الجميل – عاصمة اسكوتلاندة ومُنتجع ملكة بريطانيا، فلن أمكث فيه إلا يومًا أو بعض يوم.. كنت قد حددت خط السير على خريطة المدينة، التى أخذتها من بين مطبوعات عديدة عن معالم أدنبرة موضوعة تحت يد كل نزيل بالفندق، فى عرض مثير وجذاب، ومنها عرفت أن أدنبرة، مدينة ذات تمثيل برلمانى مستقل، يقدر تعداد سكانها بحوالى ٥٠٠ ألف نسمة، وأنها مركز مقاطعة مدلوثيان، قرب خليج فورث. ويشار إلى المدينة فى الأدب باسم ديوندن، وتعرف أحيانًا باسم أولدريكى. وقد شيدت المدينة على سلسلة من الحفاف الجبلية (جمع حافة جبلية).. وهى أصبحت مدينة فى عام ١٣٢٩ م، وعاصمة لأسكوتلاندة فى عام ١٤٣٧ م، واستولى عليها الإنجليز فى عام ١٥٤٤ م. وبعد الاتحاد فى عام ١٧٠٧ م، قرر مجلس البرلمان (المحكمة العليا الآن) ألا تكون المدينة مكانًا لاجتماع الجمعيات الوطنية..

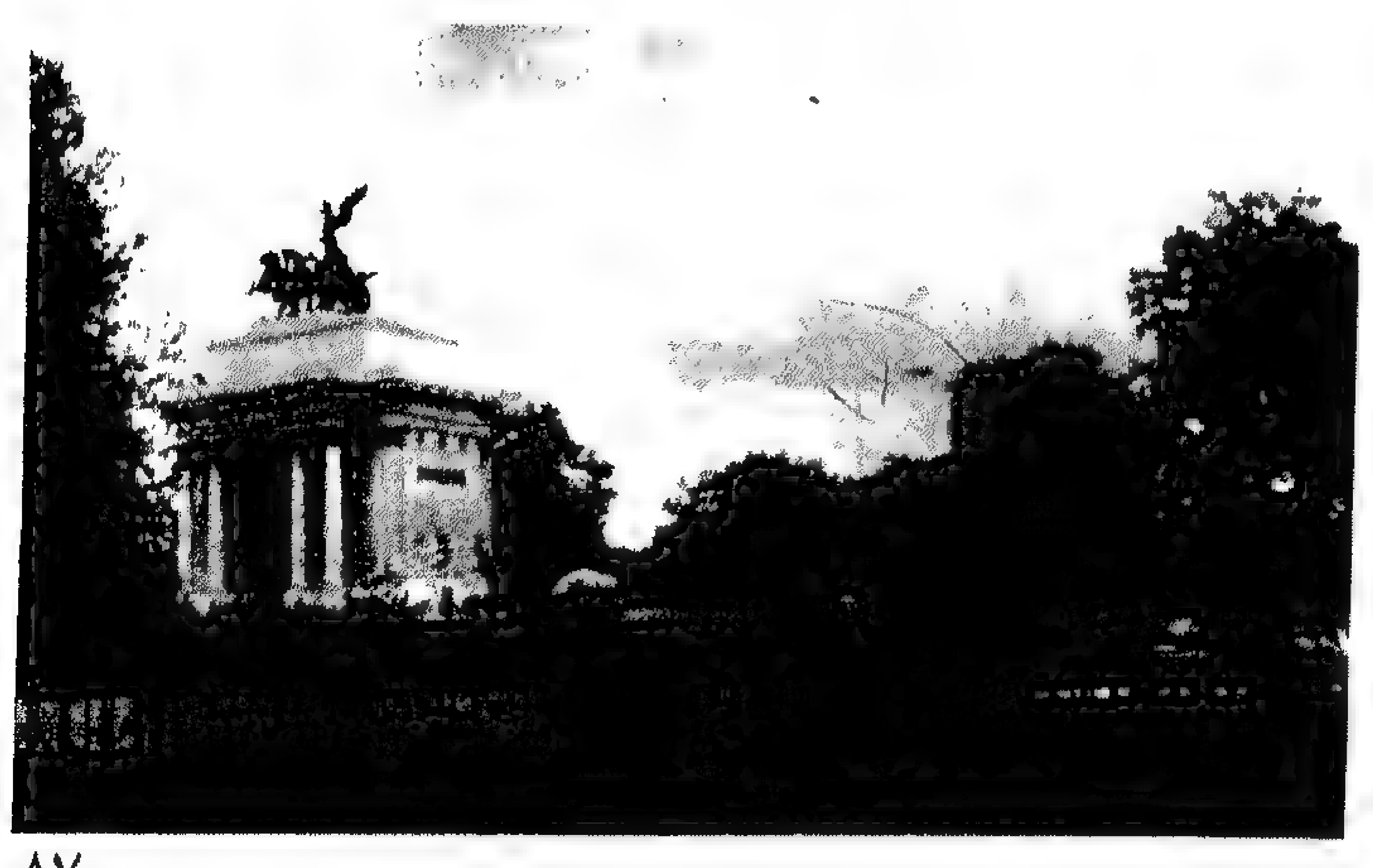
خرجت إلى الشوارع في أدنبرة، فإذا هي مغسولة لامعة، الغابات والأشجار فيها تغلب على الأبنية والدور.. ومع ذلك لم يكتف ساكنو تلك الدور بما تقع عليه عيونهم إذا أطلوا من نوافذهم أو خرجوا من دورهم، فراحوا يغطون الجدر، ويحيطون النوافذ بالزهور والورود فى تشكيلات وتنظيمات وقفت أمامها طويلا، وأنا أقول سبحانك ياربى.. تعطى بغير حساب.. غنى لا حدود له فى الطبيعة حيثما نظرت.. دون أدنى مبالغة، الأبنية غارقة فى الغابات لا تكاد تبين..

من معالم أدنبرة التى حددتها للزيارة، قصر هوليرود، وكنيسة سانت مرجريت، القديسة النورماندية والكاتدرائية، وحدائق النباتات الملكية، وشارع برنسس.. والمتاحف الفنية، والمكتبة الوطنية الفنية بمخطوطاتها. وكان لابد أن أزور جامعة أدنبرة، تلك الجامعة العتيقة التى تأسست فى عام ١٥٨٣ م والتعليم فيها منذ ذاك مختلطاً للرجال وللنساء، وتشتهر جامعة أدنبرة بصفة خاصة بكلية الطب فيها، ثم تأتى بعد ذلك كليات الآداب والعلوم، والحقوق واللاهوت والموسيقى.. مما جعل المدينة مركزًا أدبيًّا وعلميًّا منذ القرن الثامن عشر والتاسع عشر. وبأدنبرة صحيفة يومية تحمل اسمها وتأسست عام ١٨٠٣، ومازالت تصدر حتى الآن.

فى تجوالى فى شوارع أدنبرة التى تكاد أن تكون خالية إلا من عدد من السيارات المارقة فى هذا الاتجاه أو فى ذاك.. ونادرًا ما تلمح سائراً على قدمين إلا وهو على عجل، لا متسكعًا ولا متنطعًا. عبرت أحد الجسور فوق نهر من أنهر المدينة، تكاد تتشابك فوق



في أدنبرة..
تلك المدينة الهادئة الجميلة – عاصمة أسكتلندة – ومقر لقصر الملكة، بمرتفعاتها وغاباتها واللمسة الجمالية فى كل شوارعها ومبانيها.. الزهور فوق كل نافذة، وعلى أعمدة النور، بجانب الحدائق الواسعة والغابات الكثيفة.. مدينة لايوجد أى أثر لتلوث البيئة فيها.



الأغصان الخضراء الممتدة فى تعانق من الأشجار العالية جدًّا على شاطئيه.. نعم، هو ذاك، فالأشجار عالية جدًّا، مرتفعة بأغصانها إلى ما لم أرمثله من قبل.. إننى أعيد النظرة كرة أخرى إلى تلك الأفرع فى عليائها، فأشعر أننى لم أعرف كتلك الأشجار أشجارًا أخر.. وتنزلق النظرات سريعا إلى سوقها، غليظة غليظة غليظة، متضرس قلفها فى شدة ووعورة كأنما البرودة العالية قد قطبت من بشرته تقطيباً. تستمر النظرة فى انزلاقها، فإذا عند أقدام تلك الأشجار، نهر يجري ماؤه فى سرعة ملفتة للنظر، وإذا بماء النهر شفافًا لا يحمل غرينا ولا طميًا.. ولكن.. إن لون الماء بنى داكن.

ووقفت وحيدًا فوق الجسر، وكأنما كنت نشازًا فى سيمفونية الشارع الأدنبراوى، الذى لا يقف فيه واقف، ولا يتمهل فيه ماشٍ.. وقفت أنظر النهر هادرًا، والماء بُنيًّا يعلوه الزبد الأبيض حينًا، وحينًا يختفى، والأشجار باسقات لها طلع نضيد ترمى بأوراقها الصفر بين حين وحين فتحملها المياه دون لهفة ودون تمهل، وتمضى.. لست أدرى إلى أين.. ورخات المطر فوق مظلتى وعلى أطراف معطفى، لم تزل تعزف معزوفتها الخافتة فى أذنى.. وقفز إلى ذهنى ما قرأته فى المطبوعات السياحية بفندق ستار منذ ساعات قلائل عن أدنبرة وماتشتهر به من صناعات وأعمال هندسية، ودبغ للجلود وصناعة الأدوات والكيماويات والبسكويت.. وخطر فى ذهنى خاطر، لم انتبه الى عدم جوازه واستحالته فى مثل تلك البلاد.. قلت وأنا أهز رأسى كأنما أنا أرشميدس فى زمانه.. وجدتها وجدتها.. إن هذه المياه البنية اللون، ماهى إلا مخلفات المصانع يلقونها فى أنهارهم ومجاريهم المائية.

ولكن لم ألبث أن بلغت هذا الخاطر، حتى أعقبه الشك واختلط به عدم الرضا... والتفت، فإذا بسائر قد قرب منى..

سيدى.. أتسمح لى أن أسألك عن ماء هذا النهر.. وهل بنيته هذه بسبب مخلفات مصانعكم فى المدينة؟! ألهذا الحد تلوثون بيئتكم الجميلة؟!

وبُهت الذى سمع، ونظر إلى فى دهشة وعجب كأنما نطقت كُفرًا:

– ماذا تقول ياسيدى، إننا هنا من أشد الناس حرصًا على بيئتنا وعدم تلوثها.. لعلنا هنا نعرف للطبيعة سخاءها وكرمها حق المعرفة، ومن ثم، فعجيب أن تقول إننا نلوثها.. إن الماء الذى ترى، من مياه الأمطار المتساقطة على المرتفعات من حول المدينة، فمدينتنا على حافات تلك المرتفعات، ولذلك فالمياه تتخذ لها مجارى منحدرة فى شدة حينًا، والهوينى أحيانًا، باتجاه خليج فورث، حيث «ليث» ميناء المدينة.. وذاك سر جريانها السريع. أما لونها البنى يا سيدى، فلأنها من تجمع الأمطار المتساقطة على صخور العصر الكربونى..

ثم نظر إلى فى تساؤل: هل تعرف ماهو العصر الكربونى؟

وبرغم أن ذاك تخصصى الدراسى، إلا أننى قلت له: أريد أن أعرف يا سيدى.. قال مستطردًا: العصر الكربونى هذا، يعتبر فترة زمنية مما يسمى بحقب الحياة القديمة منذ حوالى ٣٥٠ مليون سنة. كانت تنمو فى هذه المناطق خلال ذلك الزمان، غابات باسقات وأشجار ضخمة، ربما لم تعد موجودة اليوم، مما كان يسمى بأشجار الليبيدودندرون والسجلاريا وغير ذلك..

وبرغم أنه من بين مؤلفاتى كتاب بعنوان «قصـة الفحم فى مصر» وبرغم أنه من بين أبحاثى المنشورة بحث بعنوان «كيميائية الفحم فى عيون موسى بسيناء، بمصر» إلا أننى أردته أن يستطرد، ربما لأعرف مدى عمق الثقافة والوعى عند هؤلاء القوم.. قال:

باختصار إن هذا اللون البنى، ناتج عن تسرب مياه الأمطار عبر صخور العصر الكربونى، ومافيه من أنواع الفحومات التى تشتهر بها بريطانيا، وتلك الفحوم ناتجة عن النباتات التى تكون قد اقتلعت، ثم دفنت، أو نقلت ثم دفنت بطريقة مباشرة تحت رواسب تراكمت فوقها مباشرة، فعزلتها عن تأثيرات الفطريات والبكتريا فلم تتحلل، وإنما تعرضت لتأثيرات كيميائية وفيزيائية غيرت فى تركيب الخشب وشكله، فصار فحمًا حجريًّا، وربما يكون قد اكتسب بعضًا من المادة المعدنية أو غير العضوية، مما يحيط به من رواسب وصخور.. وأول ما يتكون فى سلسلة تحويلات الخشب إلى فحم حجرى، هو «البيت – Peat وهو ليس فحمًا بالمعنى المقصود وإنما هو بقايا نباتية مازالت لشكلها حافظة، ولطبيعتها مبقية، وهى العتبة الأولى لتكون الفحم الحجرى بمراتبه الشهيرة، وهى اللجنايت Lignite والبيتومين Bitumin ثم الأنثراسايت Anthracite وهو أرقى وأجود أنواع الفحم الحجرى يؤثر فى ذلك ويتمم فعله، عوامل عديدة منها طريقة تجميع النباتات ودفنها سريعا، وأعمارها وانتشارها وطبيعة وكثافة العوامل المسببة لتعفن وتكسير وإتلاف النباتات الأم للفحومات، ثم التاريخ الجيولوجى المتعاقب عليها، ونوعيات الرواسب من حولها.

وعمومًا، فإن أفضل التكوينات الفحمية وأجودها، هى ما تكونت فى فترة نشاط فى الحركات الجيولوجية فى منطقة سهلة التضاريس، أو تكاد تكون مستوية، وإن يكن سطح الأرض مقعرًا، يكن أفضل تحت ظروف قارية، أو شاطئية، فى مناخ رطب، وخضرة وفيرة.. تلك ما كانت عليه منطقتنا هذه، منذ نحو ٣٥٠ مليون سنة.. إن لدينا هنا أفضل حقول فحم فى العالم. ويتمثل التتابع الصخرى الرسوبى فى حقول الفحم عندنا، بطبقات فحمية هائلة تعلوها طبقات من الطين الحرارى والحجر الرملى والطفلة، سواء كانت ذات حفريات أو عديمتها.. ولذلك فإن مناجم الفحم عندنا تقع تحت سطح الأرض بأعماق كبيرة، حتى لتجد مناجم منها تمتد ما بين شاطئ خليج فورث تلك الذراع الممتدة فى أرض سكوتلاندة من بحر الشمال، ويمتد ذاك الخليج نحو ٨٠ كيلو مترًا من «ألوا» إلى بحر الشمال، ويتراوح عرضه بين ١,٦ و٢٩ كيلو مترًا. تحت ذاك الخليج توجد مناجم فحم عميقة، وبكل ذاك العرض، وبخاصة عند قنطرة «كوينز فرى» المشهورة والتى يبلغ طولها ١٦٢٥ مترًا، وتعبر فوقها قطارات السكك الحديدية.. فى ذاك الخليج يصب نهر فورث الذى يبلغ طوله أيضًا حوالى ٨٠ كيلو مترًا، ونقف الآن على شاطئ أحد روافده.. حيث ينبع عند «سترلنجشر» ويصب فى «ألوا»..

ويستمر محدثى قائلاً:

وهذا إذن رافد لنهر فورث.. ينبع من مرتفعات العصر الكربونى فى الشمال الغربى، لهذه المنطقة، ومن هنا كان تدفقه السريع.. أما

لونه البنى يا سيدى، والذى اتهمتنا تهمة باطلة بأنه نتيجة فضلات المصانع، فأولاً أقول لك: إن مصانعنا جميعًا تقام بعيدًا عن المدينة، ومن ثم فلا تلوث.. وثانيا أقول لك: إن اللون البنى ناتج عن مرور المياه الناتجة عن تساقط الأمطار على طبقات «البيت» الذى حدثتك عنه، واستخلاص اللون البنى منها.. وهكذا ترى أن لا دخل لنا فى ذلك، ولا اعتداء لنا على البيئة.. ثم ضحك قائلاً.. هل اقتنعت يا سيدى بأننا حريصون على بيئتنا، ولا يمكن أن نلوثها.. ثم استدرك قائلاً.. لكن قل لى.. من أين أنت؟..

قلت: من مصر..

فتح عينيه على آخرهما وقال: أوه، حيث الشمس المشرقة.. هل ترى يا سيدى ما نحن فيه.. جو بلا شمس طوال السنة..

قلت له: نعم، ولكن بيئتكم نظيفة.. وتحافظون عليها حقًا.

* * *

الغد.. موعد التجمع فى مطار أدنبرة، كما جاء فى دوريات المؤتمر المرسلة لنا من قبل.. تجمع، لنأخذ ما سيكون فى انتظارنا من سيارات إلى مدينة القديس أندروز.. (سانت أندروز).

فى الموعد كنت هناك..

لافتة صغيرة وواضحة فى ركن المطار كتب عليها.. المؤتمر الجيولوجى الأفريقى الثالث عشر.. فى الساعة الثانية وخمس دقائق.. صدقونى لم تنقص ولم تزد.. وهو الموعد المضروب منذ ثلاثة

شهور ظهرت سيارة، مكتوب على جانبها اسم المؤتمر.. كنا عندئذ قد تجمعنا ستة أفراد.. من بينهم سودانى، وفرنسى، واسرائيلى وأنا.. تعارفنا، أخذنا أماكننا فى السيارة.. موعد التحرك بعد ثلاثة دقائق.. عندها تمامًا أدار سائق السيارة محركها وانطلق.. الطريق بين أدنبرة، وسانت أندروز، مكان المؤتمر والذى سيعقد فى جامعتها، طوله ٤٩ ميلًا أى نحو ٨٠ كيلو مترًا..

الطريق صاعد هابط يدور يمينًا وشمالاً عبر الريف الإنجليزى.. أو بالأحرى الأسكتلندى..

الطريق يمر بنا فوق كوبرى على نهر فورث الشهير..

الطريق يعكس بانوراما الريف الإنجليزى كأروع ما يمكن أن يكون عليه ريف مثالى..

الطريق يقطع عبر قرى الريف الإنجليزى.. وما أدراك ما قراه؟.. أقصور هى أم بنايات جميلة، تحيط بها ملاعب الجولف الخضراء الواسعة، وتمتد فى الحقول شرايين الطرق المرصوفة، حتى أضيق الممرات.. وتنتشر فى الحقول قطعان الأبقار والخيول، وتدور ماكينات جمع المحاصيل المتعددة الأنواع، المتغيرة الألوان، كأنما هى لوحة، أبدعها الواهب الديان.. وسبحانك ربى تعطى بغير حساب، وترزق من تشاء بغير حساب.. غِنى وثراء فى الطبيعة لا حد لها. وسيطرة من الإنسان على نواحى تلك الطبيعة لا مثيل له..

الطريق من أدنبرة إلى سانت أندروز فى السيارة الصغيرة كان

يحمل لى مفاجأة غريبة. إن السائق يحدثنا عن جيولوجية المنطقة التى نعبرها.. وعن الأزمان الجيولوجية التى نسير بين رواسبها وصخورها حديث خبير.. من أنت؟.. إننى أستاذ الجيولوجيا التركيبية بجامعة سانت أندروز. ياللروعة... قلتها همسًا، وصمت أنصت لمحاضرة شيقة علمية يلقيها علينا سائق سيارتنا (الحافلة الصغيرة) المقلة لنا من أدنبرة إلى سانت أندروز..

* * *

هناك فى جامعة سانت أندروز، كانت دكتورة جوديبيت، أستاذة الجيولوجيا ومنظمة المؤتمر بانتظارنا، مع رفقة لها من موظفات التسجيل للمؤتمر.. تسلمنا حقيبة المؤتمر ومطبوعاته، ثم أوصلونا إلى المدينة الجامعية، حيث نزل كل منا فى حجرة خاصة.. غير بعيد عن مبنى الجامعة..

البقاشين.. سانت أندروز

المدينة الجامعية لطلبة جامعة سانت أندروز، تتكون من أربعة طوابق فى تصميم هندسى عصرى بديع، على شكل جناحين، بحيث يتاح لكل حجرة أن ترى الطبيعة من حولها. وكل عدة حجرات تكون مع بعضها ما يشبه المسكن الخاص، بمرافقه الخاصة المزودة بمناشف ورقية لكل الاستخدامات مطبوع عليها اسم الجامعة. الحجرة بها صوان فى الحائط يعلوه مصباح «نيون» وفى ظهر المصباح مدفأة كهربية.. يقابل ذلك سرير يتسع لفرد واحد، وثير الفراش لينه، وبجانبه مكتب ينقسم إلى قسمين، قسم منه ثابت، والآخر على شكل خزانة متحركة.. وثبت فى الحائط، فى أعلى المكتب مصباح له ذراع طويلة يمكن بها تحريكه فى كل الاتجاهات. النافذة،فى الحجرة كبيرة نوعًا ما، وتطل على الغابات وحقول القمح الممتدة حتى عتبات المدينة من جانب، وعلى خليج فورث الممتد كذراع طويلة من بحر الشمال إلى عمق أسكوتلندة من جهة الشرق، فكأنما أدنبرة على شاطئ منه، وعلى الآخر مدينة سانت أندروز.

خلعت ملابسى، واستحممت بالماء الساخن، ووضعت نفسى فى السرير متوسدًا تلك الوسادة الناعمة المخملية، لكننى لم أنم.. إن حصاد يومين فى أدنبرة تلك المدينة الخيالية الساحرة، ورحلة عبر ريف اسكتلندة - وإن تكن لقرابة التسعين كيلو مترًا لا تزيد - تمر رؤاها أمام ناظرى كفيلم سينمائى رومانسى ملونٍ، يستحوذ على خيالى، ويتشبث بفكرى، فلاأجد لنفسى منه فِكاكًا، جمال وروعة، وغِنى وثراء فى الطبيعة، وعظمة وقدرة وسعادة فى البشر.. تلك القرى التى مررنا بها، تلمح فيها وسائل الإنتاج، بل تكاد تشعر بالإنتاجية ذاتها.. الحقول مترامية، والمحاصيل فيها متنامية.. قطعان الأبقار والخيول أينما تلفت تجدها والشبع ناضح على أجسادها.. قرى «دالمنى وانفزكيبثينج وأبردور».. ثم نهر فورث ومن بعده «كركالدى وماركنيش وليدى بانك ولوكاس ثم سانت أندروز»..

إن الشريط السينمائى الملون لتلك الحقول التى جُمعت فيها أعواد القمح آليًّا على هيئة حزم كبيرة، أوحقول الخضراوات الزاهية الألوان، أو الغابات الباسقة الأشجار، أو العشرات من الأبقار الملونة، بأثدائها المنتفخة، أو الخيول تجرى صغارها من حولها.. ثم.. تلك المساكن، كبيوت الأحلام، وسط كل هذا الشريط الملون الزاهى.. كل ذاك، لم أنسه، وكيف أنساه، وهو يلح على ذهنى أن يسترجعه أكثر من مرة..

ولكن شيئًا فشيئًا راحت تلك الصورة الجميلة تبهت معالمها فى خيالى، ووجدتنى أذهب إلى بعيد بعيد.. وأتت المغرفة التى ضربت بها

فى دست الذاكرة بصورتى صغيرًا، صورتى طالبًا، وراحت الصور تجر وراءها من تلقاء نفسها صورًا وصورًا، وكأنها بكرة خيط، لم يكد يُفك عنها طرف الخيط، حتى أخذت تكر منسابة بشريط متلاحق من الصور، فى سرعة كدت لا ألاحقها..

لقد كانت الصورة البعيدة البعيدة، هى صورة الفتى فى التاسعة من عمره، وقد ارتدى بنطلونًا قصيرًا، إلى ما فوق الركبة، وجوربًا طويلاً إلى ما تحت الركبة، وحذاء تشقق جلده وتقطعت خيوطه، وكوفية قد أحاط بها وجهه وأذنيه، اتقاء برد شهر طوبة فى السادسة من صباح أيام الشتاء، حيث كان يقطع الطريق ما بين بلدته والبلدة المجاورة على بعد ثلاث كيلو مترات حيث المدرسة الابتدائية.. وكان على الفتى أن يحمل فى إحدى يديه صُرة بها أرغفة ثلاث وقطعة من الجبن، وفى اليد الأخرى «مخلاة» بها كتبه وكراريسه.. وقد جمَّد البرد أطراف يديه، وجمد الخوف النظرة فى عينيه.. فالطريق ممتد بين حقول الذرة بما فيها من ذئاب، وعلى شاطئ ترعة (المنهى) الآخذة من الرياح التوفيقى.. وبجانب السكة الحديدية القطار، كان يُسمى قطار الدلتا، الموصل ما بين مدينتى بنها وميت غمر،.. ويا ويل الفتى حين كان يسمع حفيف أعواد الذرة فى حقلها فيتخيل الذئب، وحين كان يلمح سمكة تقفز فوق سطح الماء، فيتخيل «الجنية»، وحين كان يسمع صفير قطار السادسة صباحًا فيتخيل «عفريت» من داسه القطار من أهل بلدته.. السادسة من صباح أيام شهر طوبة، مع وفرة الشبورة، تعطى الإيحاء بأننا مازلنا فى ظلام الليل الدامس..

وبشكل ما، يصل الفتى إلى مدرسة (عم توفيق)
الخاصة بكفر شكر، ولقد كان الرجل - صاحب المدرسـ
والحق يقال سباقًا إلى إنشاء مدرسة، فى منطقة حُرمت من
فى الأربعينات.. فكان له الفضل فى أن صار الفتى إلى ما
هو وغيره، وإلا ماكان ما هو فيه اليوم فى سانت أندروز..
الرجل صاحب المدرسة أميًّا لا يقرأ ولا يكتب.. ولا يد
حتى اليوم، ما هو الدافع الحقيقى وراء خطوة ذاك الر
غيرت من مستقبل العديد من أبناء المنطقة.. ربما كان أ
الربح، ولذلك فقد انعكس هذا على العاملين بالمدرسة..
اللغة العربية، الشيخ عطا الله، من راسبى الأزهر
الإنجليزية، عواد أفندى، خريج الجيش الإنجليزى، وهـ
كان اليوم المدرسى الكامل، والعقاب القاسى على يـ
المدرسة فى آخر كل يوم، عبء على كواهلنا الصغيرة، لا
إلا بالحفظ عن ظهر قلب.. ولقد حفظنا ونجحنا.. و
مدرسة فاروق الأول الابتدائية بكفر شكر..

ومن الحقائق العلمية المعروفة عن الصور الذهنية التى
خواطر الإنسان، إذا ما ترك لها عنانها حرًّا من ضوابط ا
إنما تجرى على أسس، إذا ما حلّلناها، وجدنا العلاقة ا
تربطها جميعًا فى تسلسل واحد.. وربما كانت العلاقة هنا
فى العقل الباطن بين حياة وحياة.. بين حياة طالب هيئـ
الحجرة، وآخر كان يسكن حجرة أخرى، ولكن شتان

النقلة الثانية فى مسلسل الصور التى خرجت من دست الذاكرة، وأنا على سرير فى حجرة فى المدينة الجامعية لطلبة سانت أندروز، كانت للفتى، بعد أن أنهى دراسته الابتدائية بمدرسة عم توفيق بكفر شكر، وانتقل إلى مدرسة بنها الثانوية.. ولم يكن أيضا بوسع الفتى ولا بإمكاناته، أن يستأجر غرفة مستقلة له، وإنما شارك آخرين.. وكانت الحجرة، دورًا ثانيا فى منزل ريفى ينقصه الماء والكهرباء.. وكان الأثاث حصيرة وبعض الأغطية الصوفية، وبعض الأقفاص نحتفظ فيها بمؤونة الأسبوع من خبز جاف وقطع الجبن.. ومصباح (جاز) نمرة عشرة.. أما عدد القاطنين بتلك الحجرة، فنصف دستة.. أحمد شكرى وعبد الغنى حسب، وسعد السعيد، وعبد العليم محمود، ولطفى مغاورى والفتى.. وكانت الأعمار تتراوح ما بين الحادية عشرة والرابعة عشرة.. ويذكر الفتى أن كيفية استذكار كل هذا العدد باختلاف أعماره قد سببت مشاكل عديدة، لم ينفع فى حلها إلا تقسيم الليل إلى أقسام ثلاثة، ليستذكر كل اثنين منهم فى ثلث من الليل. ولما لم يكن أحد منهم يحمل ساعة حتى ذاك الوقت، فقد لجأوا إلى حيلة لا بأس بها، لتنظيم أوقاتهم. فلقد قسموا مستودع الجاز الزجاجى فى المصباح، إلى أقسام ثلاثة باعتبار أن كمية الجاز تكفى لإنارة ليلة كاملة.. وهكذا تغلبت هذه المجموعة على مشكلة تنظيم الوقت..

لماذا ترد هذه الصور الآن؟!

أيمكن أن تقارن هذه بتلك.. إنه ضرب من المستحيل إذن..

ولكن هاهى الصورة تجر صورة أخرى من وسط الذاكرة.. إنها

صورة قريتى.. ولقد يكون السبب فى ذلك، أنى جئت من قريتى مباشرة.. وأننى مررت اليوم بقرى، ولكن شتان بين هذه وتلك..

قريتى، اسمها البقاشين.. بالقاف وليست بالكاف..

وقريتى، تحتضن ترعة صغيرة تسمى ترعة (المنهى)، تخرج من الرياح التوفيقى عند كفر شكر..

وقريتى، دروبها ملتوية، وحاراتها ضيقة.. واسمها هذا لا أدرى مصدره. سألت عنه الآباء ، فلم يحيروا جوابًا. وإذا لم يكن للاسم معنى، فما معنى أن يتمسك به الناس. كنا قلة مثقفة من شباب القرية، فلم نسع لتغييره، واليوم بقريتى العشرات من الأطباء والمهندسين والضباط وغيرهم، فلماذا لا يطالبون لبلدتهم باسم ذى معنى، ونحن المسئولين عن اختيار الأسماء وقد يكون اسمها مثلاً (المكارم) نسبة إلى ولى الله يقع فيها مقامه. المهم.. إن قريتى قد تغيرت تغيرًا كبيرًا وجذريًا وككل قرية مصرية فى هذه السنوات الأخيرة.. فإلى عهد غير بعيد، كانت قريتى منتجة، تحيا فى رغد من العيش، وإن تكن المظاهر غير ماهى عليه اليوم، كانت الحقول مخضرة بسواعد الرجال وهممهم. تشعل فيهم الحمية نساؤهم غاديات رائحات يحملن الطعام ليوم كامل فى الحقل، ويشمرن عن السواعد إن لزم الأمر.. كان الغناء فى وقت جنى القطن، أوقطع أعواد الذرة، أو ضم أعواد القمح، يرتفع فى سماء الحقول فتتجاوب معه دروب القرية مهللة ومكبرة.. كانت قطعان الأبقار والجاموس، والأغنام والحمير والجمال تزحم الطرق عند العشية عائدة إلى القرية، أو قبل بزوغ الشمس

ذاهبة إلى الحقول.. كان دولاب العمل لا يتوقف أبداً.. فهذه ساقية يغنى معها (البلبيسى) ياليل.. ياعين.. وذاك محراث تندفع به الأبقار، مع صوت فرقعة السياط.. كان كل بيت فى القرية، يخصص قاعة للزبد واللبن والجبن، كانت أسطح البيوت تمتلئ بالدجاج وبالبيض.. كان عارٌ أن يشترى فلانٌ خبزًا أو جبنًا أو بيضًا.. كانت قريتنا جاهزة لإكرام الضيف أنّى أتى.. وكانت قريتنا تمد المدن المجاورة بإنتاجها المتزايد..

ثم جاء زمان.. اختفى المحراث واختفت الساقية، وتميكنت كل وسائل الإنتاج..

أضيئت كل حارات ودروب القرية بالكهرباء..
توفر عند الفلاح الوقت والجهد..
غزا التليفزيون كل الدور.. وأيضًا الفيديو..

ولا نقول لماذا؟ فذاك شأن التطور.. ولكن أمن التطور، التراخى، والكسل؟ أمن التطور، فراغ الدور من اللبن والخبز البيتى والبيض؟ أمن التطور، لجوء قريتى إلى الجمعية التعاونية الاستهلاكية، لشراء اللحم والدجاج المستورد، وكذا اللبن الجاف؟ أمن التطور لجوء نسيدات قريتى، إلى المخبز فى المدينة لشراء الخبز، بعد أن كان بكل دار مخبزها؟ أمن التطور تفريغ هذا الجهد الذى وفرته الميكنة أمام التليفزيون والفيديو، سهرًا كل ليلة حتى الثانية والثالثة صباحًا؟. وكأنما نحن وارثون سفهاء، لهذه المنجزات الحضارية.. أو كأنما نحن وارثون سفهاء لآباء وأمهات عملوا وكدوا،

وبنوا وعمروا وملئوا الدور بالخير.. قريتى، بعد أن كانت بيوتها من طين.. زُرعت فيها الأعمدة الخرسانية.. ولابأس فى ذلك، قريتى، بعد أن كانت تنام بعد صلاة العشاء.. تعددت فيها الحلقات التليفزيونية، والبأس فى ذلك.

قريتى، بعد أن كانت مكتفية ذاتيا،.. أصبحت مستهلكة فى شره.. وكل البأس فى ذلك.. وإنى لأسأل نفسى، هل تقدمت قريتى؟!

أبادر فأقول لقريتى، ولكل قرية مصرية: لا يجب أن تخدعنا المظاهر البراقة التى تعيشها القرية المصرية اليوم، لسبب بسيط وهو أنها تتنافى مع أى معايير للتقدم بمعناه الحقيقى إنها فعلا مظاهر براقة، لا يمكن إهمالها فى الحسابات، فالكهرباء فى القرية ساعدت على انتشار أجهزة التليفزيون والفيديو، والمال القادم مع العمالة المهاجرة جاء بالمستورد، والمنازل الخرسانية.. لكن، وصدقونى ياأهل قريتى، كل هذه الصور لا تمثل إلا القشور والسطحيات من مظاهر التقدم، لأن القرية أصبحت تستورد ٨٥٪ من غذائها من المدينة، نتيجة للخمول الذى دبَّ فى أوصالها.. إنها قضيَّة مصيرية غاية فى الخطورة.. كانت قريتنا تستخرج من أرضها، ماإستغلظ واستوى على سوقه، وما يعجب الزرَّاع، ليطعموا منه ويطعموا من بالمدينة، حيث لا أرض ولا زرع، فما بال القناة ارتد ماؤها، وجرى التيار فى غير مجراه الطبيعى، وأصبح المنبع فى المدينة، حيث لا منبع حقيقى. وأصبح المصب فى القرية حيث كان يجب أن يكون المنبع.. ذاك أمر معكوس.. والأمر المعكوس لا يستقيم طويلا.. كنا نشكو من أز

المدينة تطلب من القرية، فأصبحت المدينة والقرية كلتاهما يطلبان.. ومن أين ؟.. من خارج حدود بلادنا.. وأسفاه. إن لأبناء قريتى، الحق كل الحق، فى أخذ نصيبهم من أساليب الحضارة.. ولكن يبقى عليهم الحق، فى أن يبذلوا من الجهد مثل ما كان يبذل الآباء. فالأولى بالميكنة أن تزيد الإنتاجية لا أن تريح البهائم وتلغيها من حقل العمل، وفقط.. كنا نتصور أنه بالماكينة، وبالتثقيف من وسائل الإعلام، تزيد إنتاجيتنا.. ولكن العكس هو ماكان.. وياليتهم يرون ماقد رأيت اليوم..

وتتباعد هذه الصور الذهنية مرة أخرى، لتطفو على السطح صورة القرية فى الريف الإنجليزى.. فصوارى التليفزيون عالية فى كل مكان، وملاعب الجولف تحيط بكل قرية، ولكن العمل يأخذ حقه ووقته، والإنتاج علاماته واضحة فى مخازن كل قرية.: فهل ندرك ذاك قبل فوات الأوان.. هل ندرك أن نهر الخير قد توقف تدفقه– أو كاد من داخل قريتنا، وكل قرية مصرية.. إن النفس تملى ما أكتب وقد غشتها ظلال تقع بين اليأس والرجاء فلا النفس فى حالة من اليأس الخالص الذى لا رجاء فيه، ولاهى فى حالة من الرجاء الذى لا يأس فيه.. إننى هنا فى سانت أندروز، على بعد آلاف الأمتار من قريتى (البقاشين) على أول ترعة المنهى من ناحية الرياح التوفيقى بمحافظة القليوبية، ولكنى مع ذلك أطير إلى بلدتى.. إلى قريتى.. إلى كل من فيها من صبى وصبية، من شاب وفتاة، من رجل وامرأة، من شيخ وجدة، أطير إليهم جميعًا على أجنحة الخيال،



فى الطريق من أدنبرة حيث المطار الذى وصلناه من لندن، إلى سانت أندروز حيث مكان المؤتمر، مررنا بالريف الإنجليزى البالغ الروعة والجمال.. وهذه قرية أسكتلندية بيضاء بما يحيط بها من حقول محروثة. وقطعان الماشية تظهر على البعد.

إلى أرض قريتى وسمائها، ثم أعود إلى سريرى فى حجرتى فى مدينة الطلبة بجامعة سانت أندروز، أطير وأعود لأطير من جديد وأعود فى تلاحق سريع الوقع، وتلك هى نعمة الخيال، يحطم به الإنسان حواجز الزمان وحواجز المكان، مهما بعدت المسافات وطال الزمان. إننى هنا متجه بنظراتى عبر النافذة الزجاجية، أنظر إلى لا شىء ولكن على البعد تتجسم لى صورة قريتى..

لقد أصبح البناء فى قريتى بالطوب الأحمر والخرسانة.. ولكن التخلف لم يختف..

لقد أصبح فى قريتى العديد والعديد من حملة الشهادات.. ولكن التخلف لم يختف..

لقد أصبح فى قريتى الراديو والتليفزيون والفيديو.. ولكن التخلف لم يختف..

لقد أصبح فى قريتى الفتيات المتعلمات من كل لون وصنف.. ولكن التخلف لم يختف..

لقد دارت ماكينات الرى والحرث والبذر والدراس.. ولكن التخلف لم يختف..

تغير الكثير والكثير من المظاهر السطحية.. ولم يتغير واقع النفوس ومضامين الرتابة والتخلف.. ولعل فى قريتى وكل قرية مصرية، الجديد من القيم..

فلقد أمسى فيها الفراغ مفسدة، وأمست قيمة العمل مضيّعة، وأمست له ساعات لا تكتمل أبدًا، وأمسى التواكل فيها قيمة سائدة، وأمست السهرات حول الفيديو حتى مطلع الفجر، والنوم من بعد حتى الضحى، سمة المترفين شكلاً من أبناء الريف فى مصر..

أذكر أننا كنا لا نتجاوز أصابع اليدين.. طلبة المدارس فى قريتنا فى الأربعينات، ومع ذلك جمعنا من مصروفنا الضئيل لننشئ ناديًا رياضيًا ثقافيًا.. وماذا فعل المئات اليوم من المتعلمين فى قريتنا

لقريتنا، لاشيء، وقد أرى أحيانًا جعجعة ولا أرى طحينًا.. لازلت أذكر ذلك اليوم الذى جاءنى بعض من شباب قريتى، الذى نال حظا من التعليم، يعرضون أمرًا أهمهم، وجعلهم يبيتون ليلهم ويقضون يومهم فى فكر مقض مقيم.. ما أمركم؟.. قالوا: لقد راحت كل عائلة من عائلات قريتنا تجمع من مالها لبناء «مضيفة» خاصة بها.. قلت عجيب أمركم.. ولم لا تكون «مضيفة» واحدة للقرية جميعًا، تكون بمثابة دار للمناسبات تتعدد أغراضها، وتتعدد منافعها، ويكون للقرية فيها مآرب أخرى؟ قالوا: الآباء يريدون.. قلت: وأنتم أيها المتعلمون.. وكانت صرخة فى واد..

نعم ـلازال فى قريتى الكثير والكثير، الذى ينتظر التغيير..

وعادت بى أجنحة الخيال إلى حيث أنا، وإلى قرى مررت بها، وإلى قوم رأيتهم، وإلى فكرة أعددت لها لتتنزلق من مكمنها إلى سن القلم فيخطها على الورق المنشور أمامى، فوق المكتب المجاور، وجدتها فكرة يخالطها عبوس، ولم تكن مستبشرة ضاحكة إلا فى قليل منها.. ومع ذلك.. فقد رجوت الله الصلاح والإصلاح.. لقريتى وأبناء قريتى.. وكل قرية مصرية..

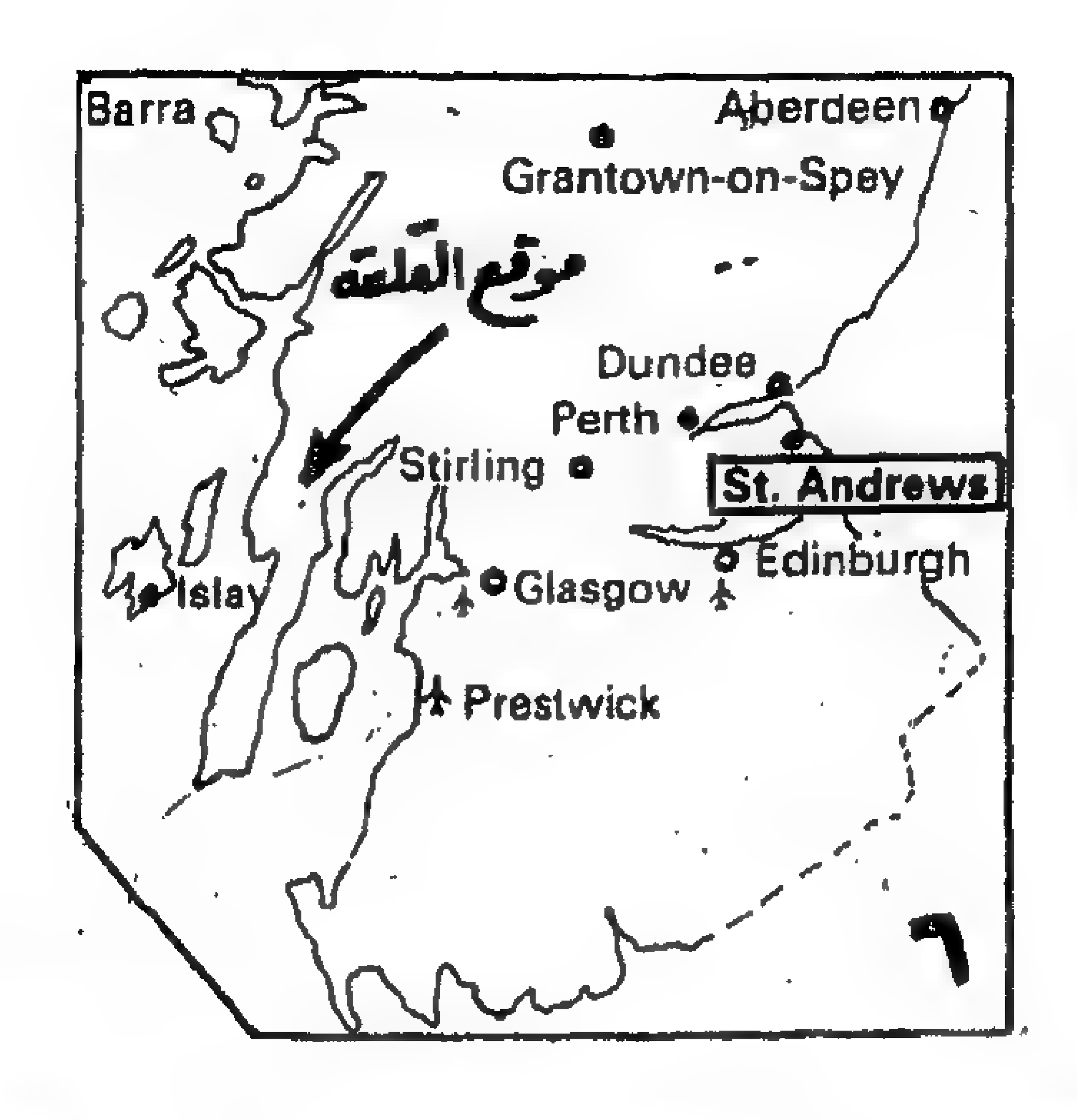
❊ ❊ ❊

فى صباح اليوم التالى، وبعد تناول الإفطار فى مطعم المدينة الجامعية، والذى خيل إلى أننى فى صالة طعام فندق من فنادق الدرجة الأولى، بلا أدنى مبالغة، انصرفنا إلى قاعات الجامعة لحضور محاضرات المؤتمر العالمى والتى كانت تلقى فى قاعات ثلاث ، مزودة

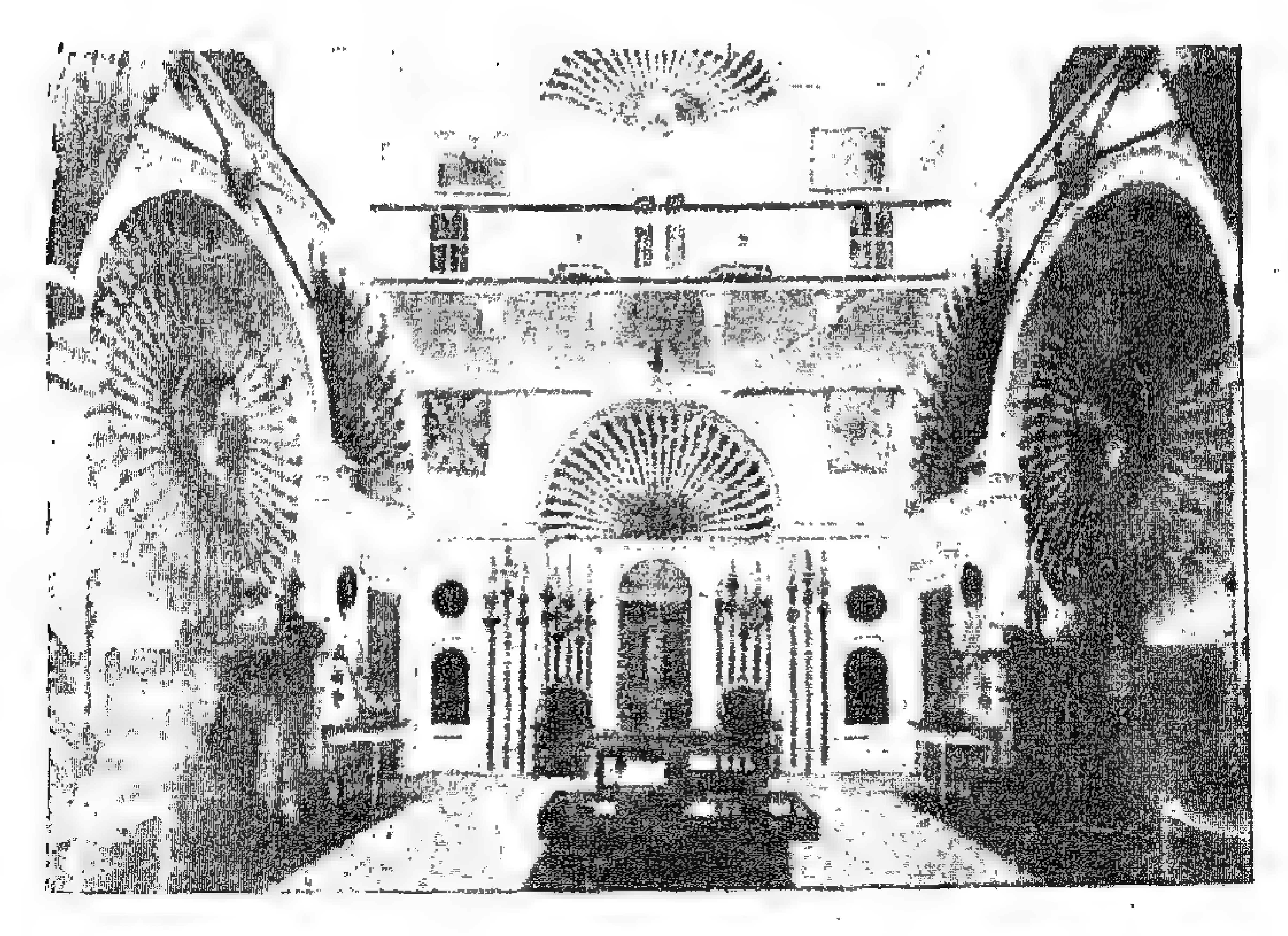


قلعة إنفرارى - آرجيل - سكوتلندة Inversry Castle, Argyll. فى زيارتنا لمدينة جلاسجو، العاصمة الصناعية لاسكتلندة، دعينا لزيارة قلعة انفرارى. وهى قلعة تقع على بعد ٦٠ ميلاً شمال غرب جلاسجو فى منطقة طبيعية ذات جمال خلاب بغاباتها وأشجارها ومرتفعاتها. والبناء ذاته، بأبراجه البارزة يعتبره صاحبه من الميراث القومى البريطانى، حيث يُعد أقدم نموذج للبناء القوطى فى بريطانيا، صممه «روجر موريس» وزينه «روبرت ميلين»، وآل أخيراً كمنزل لدوق ودوقة آرجيل، اللذين قدماه كمتحف ضم مقتنيات فرنسية وإنجليزية وصينية، وتحف لم تخل من آثار مصرية. كذلك ضم قاعة للأسلحة القديمة كما ترى فى الصورة من رماح وبنادق عرضت على شكل دائرى على جدران القاعة..

الجميل فى الموضوع أن يقدم الأثرياء قصورهم كمتاحف قومية، لا أن يهدموها ويبحثوا عن الثراء الزائل. وكم فى بلدنا من قصور.. وقصور!!

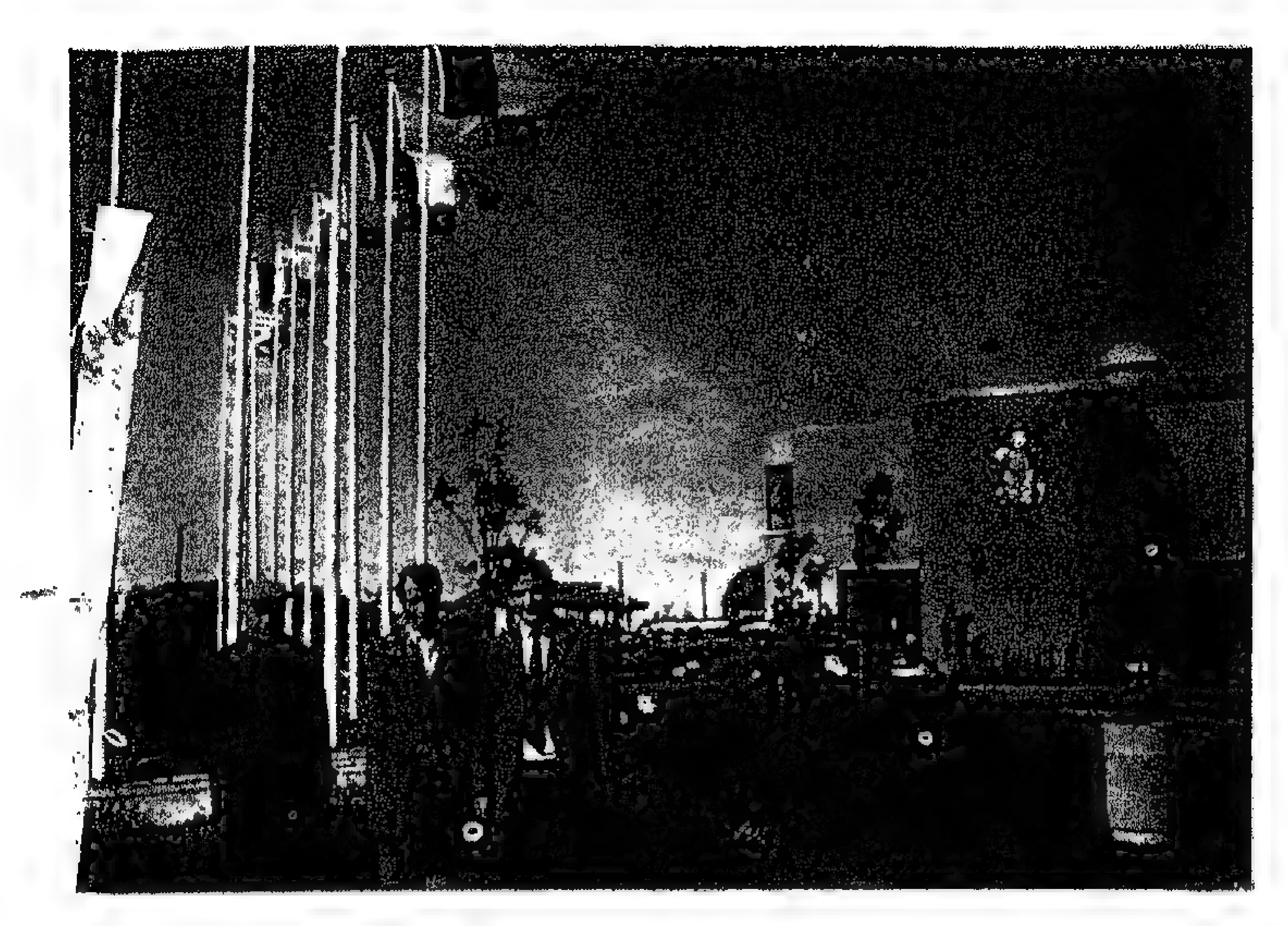


Barra
Aberdeen
Grantown-on-Spey
موقع القلعة
Dundee
Perth
St. Andrews
Stirling
Edinburgh
Islay
Glasgow
Prestwick
٦



بأحدث الوسائل السمعية والبصرية.. كان هناك مشتركون من كل أنحاء العالم. وكان الجانب العلمى للمؤتمر غنيًا غنيًّا، وكان الإعداد له متقنًا متقنًا.. وكانت الفائدة بذلك لاشك قائمة.. خلال أيام المؤتمر أعدت لنا زيارات خارجية..

فمنها زيارة لمدينة جلاسجو على بعد ٧٦ ميلاً (نحو ١٢٠ كم) إلى الجنوب الغربى من سانت أندروز، وهى مدينة برغم أنها ليست عاصمة اسكوتلاندة - فإنها أكبر من أدنبرة العاصمة الفعلية يبلغ تعداد سكانها مليونًا أو يزيدون. وهى تقع على نهر «كليد» وتعتبر أكبر مُدن أسكوتلاندة قاطبة. ويقع معظمها فى مقاطعة «لاناركشير» وبعضها فى «رنفروشير ودمبرتنشير». ولقد اصطحبونا لزيارة أحواض السفن الشهيرة بها، إذ هى ميناء بحرى هام وتشتهر بصناعة دبغ الجلود والنسيج، وسبك النحاس والعديد من الصناعات الأخرى.. ولقد زرنا فى «جلاسجو» متاحف للفنون عديدة، منها ما هو مقام خارج المدينة فى وسط غابة كبيرة، ويقال إن هذا المتحف قائم على مقتنيات لإنجليزى بحار، جاب العالم شرقًا وغربًا، اقتنى - بكل الطرق - مقتنيات من كل أنحاء العالم - ومنها مصر - ووضعها فى بيته فى قلب تلك الغابة.. وبعد موته، بُنى ذلك المتحف حديثًا.. وكان من أهم ما زرناه فى «جلاسجو» كذلك جامعتها العريقة والتى أُسست عام ١٤٥١ م ثم أعيد تنظيمها فى عام ١٥٧٧ م، وهى للرجال والنساء، وبها كليات للآداب والعلوم، والطب والحقوق، واللاهوت والهندسة والزراعة.. ولقد أتيحت لى الفرصة لزيارة قسم الجيولوجيا بكلية العلوم بتلك الجامعة، وأعجبنى كثيرًا

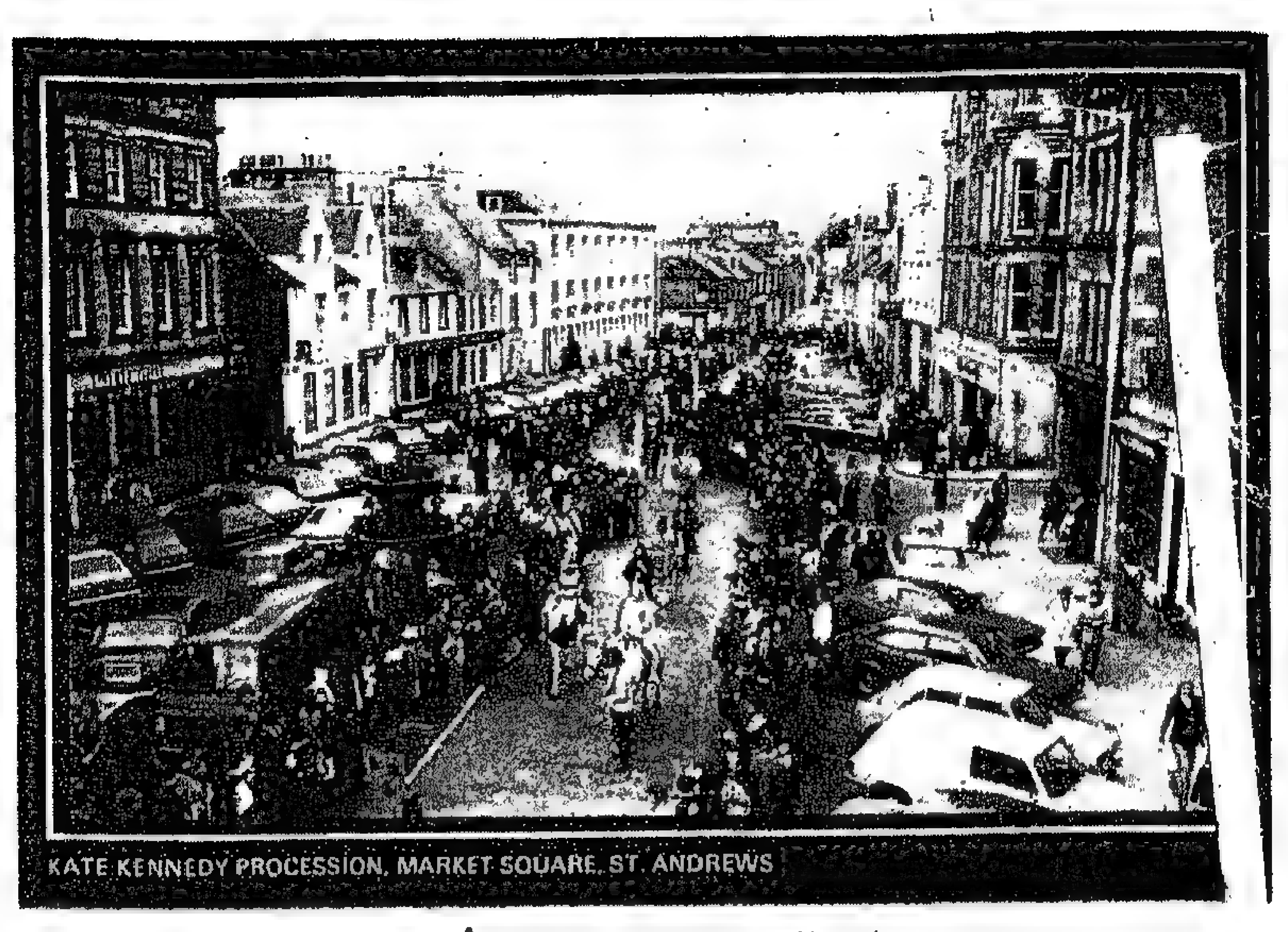


فى مدينة سانت أندروز التى تبعد عن القاهرة ٢٦٠٣ ميلا والواقعة باسكتلندة فى شمال إنجلترا على بحر الشمال فيما بين أدنبرة جنوبًا، وأبردين شمالاً.. وبجوار نادى «أولد كورس» العالمى حيث ملاعب الجولف الشهيرة.. ثلاثة من علماء الجيولوجيا فى مصر، حيث كان ينعقد المؤتمر الجيولوجى الأفريقى فى جامعة سانت أندروز قريبًا من هذا الموقع..

متحفها الجيولوجي والإمكانات المعملية، ودارت مناقشات مثمرة مع عدد من أعضاء هيئة التدريس بذاك القسم العريق..

وزيارة أخرى قمنا بها إلى بعض مصانع المنطقة، ومن أهمها مصانع الويسكى الأسكتلندى..

وزيارة أخرى إلى ملاعب الجولف الواسعة الشاسعة.. ولقد



ميدان السوق بمدينة سانت أندروز

عرفنا أن مدينة سانت أندروز، تعتبر الملاعب العالمية للجولف، يأتى إليها أثرياء العالم لينزلوا فى فندقها العريق «أولد كورس» ويلعبوا الجولف فى ملاعبها الخضراء الرائعة. والجولف رياضة تمارس فى الخلاء، بعصى وكرات مخصوصة، على ملعب طوله عادة حوالى ستة آلاف ياردة، وبه ثمانى عشرة حفرة مختلفة الأبعاد، بين مائة وستمائة وخمسين ياردة.. وقال مُستقبلنا فى ملاعب الجولف العالمية بسانت أندروز: أقول لكم أيها السادة بأن لعبة الجولف، لعبة اسكتلندية تمامًا.. فقد بدأت هذه الرياضة فى الانتشار فى هذه البلاد فى القرن

الخامس عشر، ومنها انتقلت إلى جميع بلدان العالم وتقام لها مسابقات عالمية للهواة، وللمحترفين على السواء، ولكن تبقى أحسن ملاعبها وأفضلها، هى هذه التى ترونها من حولكم الآن.. ولا توضع الكرة على الأرض قبل ضربها، وإنما توضع على حامل صغير يغرس فى الأرض من طرفه المدبب، فى حين توضع الكرة على طرفه الآخر المعد لذلك، ولا يزيد طول ذلك الحامل عن خمسة سنتيمترات.. عندها.. عرفت ذلك الشىء الغريب، الذى أهدى إلينا فى حقائب المؤتمر، ولم أكن رأيته من قبل ولا عرفته، كان أحد حوامل كرة الجولف..

وقمنا أيضًا بزيارة أو جولة لمدينة سانت أندروز ذاتها.. مدينة صغيرة هادئة جميلة. لم يكتف أهلوها بما غَصَّت به أرضها من خضرة يانعة، وزهور متعددة الأشكال والألوان، حتى ليرى الرائى فيها حديقة أو غابة كبيرة، تناثرت فيها بعض الأبنية، وإنما راحوا يملئون جدر تلك الدور بالورود والزهور، وتمادوا فعلقوا أصص الزهور فوق أعمدة النور.. فأنّى نظرت، تكحلت عيناك بالجمال، من سماء تشكلت فيها السحب بالغريب والعجيب من الأشكال التى تخفى قرص الشمس، ويتبدى نورها من وراء الأفق، كأطر لتلك التشكيلات السحابية الرائعة، إلى هامات أشجار فيها الصفرة والخضرة أشكالاً وألوانًا، إلى أرض كساها السُّندس اللاّمع تحت رخات المطر..

وقالت لنا مضيفتنا: سنمضى إلى منطقة أثرية قديمة، يفوح منها عبق التاريخ.. ومضينا إلى قلعة، أو بقايا قلعة على خليج فورث

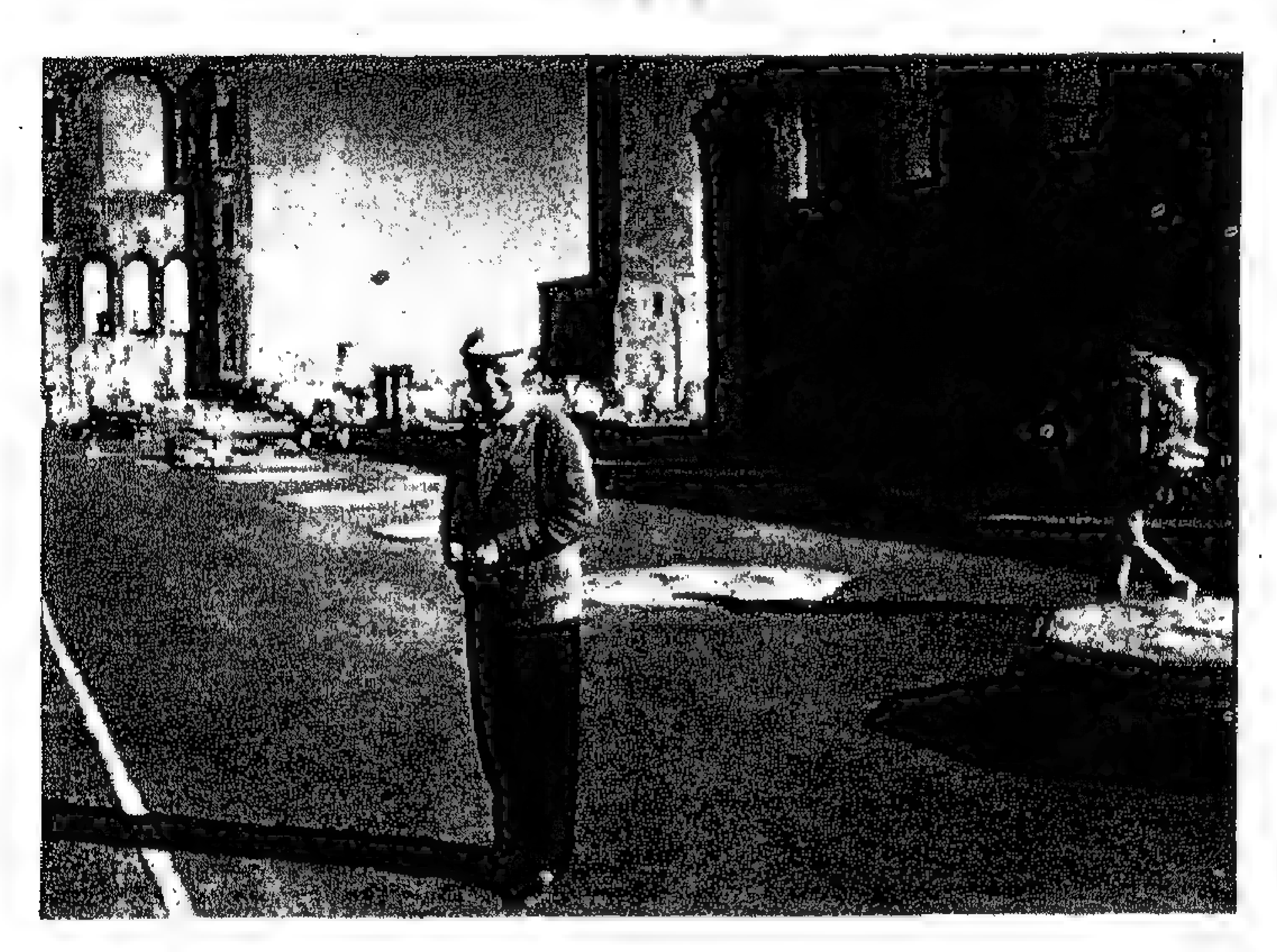


فى مدينة سانت أندروز، غير بعيد من بيت طلبة جامعتها حيث استضيف أعضاء المؤتمر الجيولوجى الأفريقى الثالث عشر.. لم يكن اليوم، يوم عطلة، ومع ذلك فكم فى الشارع من مارة..

الآخذ من بحر الشمال.. هنا كان حراس التراب الوطنى يصدون الغزاة، ويقفون لهم بالمرصاد فى القرون الوسطى.. وتأملت، فإذا هى بقايا أعمدة وأبنية قديمة، ولكن عناية القوم بها، جعلتها مزارًا ترتاح النفس له، نظيفًا ينشرح الصدر به.. وتذكرت آثارنا ذات الخمسة آلاف سنة، وما يحيط بها من إهمال، وما يعتريها من عدم النظافة، مما يجعل النفس تكتئب، والصدر ينقبض.. ورُحنا نستكمل الجولة..

فهذه كنائس قديمة، وتلك سوق المدينة.. وفجأة، وقفت دكتورة «جوديت» وقالت: أيها السادة، انتبهوا.. هنا وفى هذا المكان، وعلى هذه الصخرة اتكأت جلالتها.. الملكة إليزابيث فى إحدى زياراتها لمدينتنا.. فصارت مزارًا..

* * *



الآثار فى مدينة سانت أندروز.. بقايا قلعة، ولكن ماذا فعل القوم من حولها، وأى نظافة أحاطوها بها.. هل من وجه للمقارنة بين آثارنا ذات الخمسة آلاف سنة.. وبين تلك ذات المئات.. لا شك، أنه لا وجه للمقارنة.. وهل من وجه للمقارنة بين ما فعلوه هم بآثارهم وما نفعل نحن بآثارنا، وما يحيط بكلٍ من درجة النظافة.. لا شك أيضًا أنه لا وجه للمقارنة..

أيام المؤتمر تمضى فى حماس وعمل متصل من الثامنة صباحًا حتى الثانية بعد الظهر، ومن الثالثة مساء حتى الثامنة.. خلية نحل، محاضرات فى هذه القاعة وفى تلك. ونحن نلهث بين ما نريد سماعه من علماء العالم المجتمعين فى هذا المكان، وبين ما نريد أن نقوله لهم.. كنا أربعة مصريين واحد من جامعة القاهرة وواحد من جامعة الزقازيق، وزميل من جامعة أسيوط، فى بعثة دراسية بجامعة «ليدز».. وكاتب هذه السطور.. وكانت الروح بيننا عالية، وكل منا يحاول أن يحضر فى موعد محاضرة زميله، وفى القاعة المخصصة لذلك، شدًّا لأزره، ووقفًا بجانبه.. فكم فى تلك المحاضرات من مناقشات واستفسارات قد تجلب الحرج للمحاضر..

وكان لابد للمؤتمرين فى ندوة الجيولوجيا الأفريقية الثالثة عشرة والمنعقدة فى جامعة سانت أندروز، من اختيار المكان الذى ستعقد فيه بعد سنتين الندوة الرابعة عشرة.. وعلينا أن نختار ما بين مرسيليا بفرنسا، وبرلين بألمانيا وهما الدولتان اللتان تقدمتا لاستضافة المؤتمر بعد عامين.. وبدأت كل جماعة تعلن عن مزايا مكانها حتى يفوز بالاختيار، فى التصويت الذى سيتم فى نهاية المؤتمر.. وكانت المفاجأة مدهشة لى، ومن معى من المصريين، أن تعلن الجماعة الألمانية أن من بين المزايا رؤية تمثال نفرتيتى فى برلين.. نفرتيتى المصرية، تدعو برلين هذا التجمع العلمى لرؤيتها على أرضها. وظهرت الملصقات وفيها صورة نفرتيتى تقول: برلين.. ما أحلاها..

.. يا إلهى.. هكذا آثارنا، تفاخر بحيازتها بلاد العالم..

.. ها أنت يا مليكة بلادى المحبوبة منذ ١٣٦٩ سنة قبل الميلاد، يا زوجة إخناتون وشريكته فى إعلان التوحيد، ثم فى محنة الردة التى شقيت بنتائجها بعد وفاة زوجك..

ها أنت يا نفرتيتى، يا من استنجدت بعد موت زوجك إخناتون، بصاحب «خيتا» ليبعث إليك بأمير من أبنائه، فتتزوجينه، ويشاركك عرش مصر..

.. ها أنت يا نفرتيتى، يحتل تمثالك النصفى الرائع المشهور، مكانًا مرموقًا بين كنوز متحف برلين.. ولم يجدوا سواه لإغراء علماء العالم، أن يقبلوا استضافة برلين لمؤتمرهم القادم فى عام ١٩٨٧. وتمثال نفرتيتى النصفى فى متحف برلين، يرتفع ٤٨ سم، وعرضه عند أعلى الصدر أقل من ٢٠ سم، أو هو بالضبط ١٩,٥ سم. وقد اكتشف هذا التمثال الرائع فى يوم ٢٦ من شهر ديسمبر عام ١٩١٢، عامل من صعيد مصر الأوسط، فى أطلال تل العمارنة، ما بين ملوى وأسيوط.. التمثال كما كان، وكما هو فى متحف برلين، وكما يبدو اليوم فى ملصقاتها، تحفة رائعة بألوانه البديعة، السبعة. فالأسود فى الحواجب وبرواز (كحل) العين، والأزرق لتاجها، والأحمر لشفتيها، والوردى البمبى لجلد وجهها وجلد عنقها، ثم الذهبى والأخضر لزخرفة شرائط تلتف من حول وتحت تاجها، والبياض داخل عينيها من حول العدسة (النينى) .. هذه التى ظهرت فقط فى العين اليمنى، بينما اختفت قرنية العين اليسرى.. كان العامل الصعيدى الذى اكتشف هذا التمثال الأعجوبة، يعمل ضمن رجال البعثة الألمانية، للتنقيب





الملكة المصرية نفرتيتى (٣٣٥٦ سنةمن الآن) زوجة إخناتون وشريكته فى إعلان التوحيد لأول مرة على هذه الأرض.. وآية من آيات الفن المصرى القديم وقدرة الفنان على التلوين وروعة العلم الفرعونى فى إبداع الألوان.. تمثالها فى الصورة العليا فى متحف برلين، كان أفضل ما وضعته برلين فى ملصقاتها للدعاية لعقد المؤتمر الجيولوجى الأفريقى الرابع عشر فى رحابها.. وانتصرت به على مرسيليا بفرنسا. وفى الصورة السفلى، تمثال نفرتيتى بالمتحف المصرى.

عن الآثار فى تراب مصر فى ذاك العام ١٩١٢ بقيادة المهند
«لودفيج بورخاردت» ومساعده «هيرمان رانكه».. ولقد نج
الاثنان فى الخروج بالتمثال من مصر ليحفظ فى متحف برلير

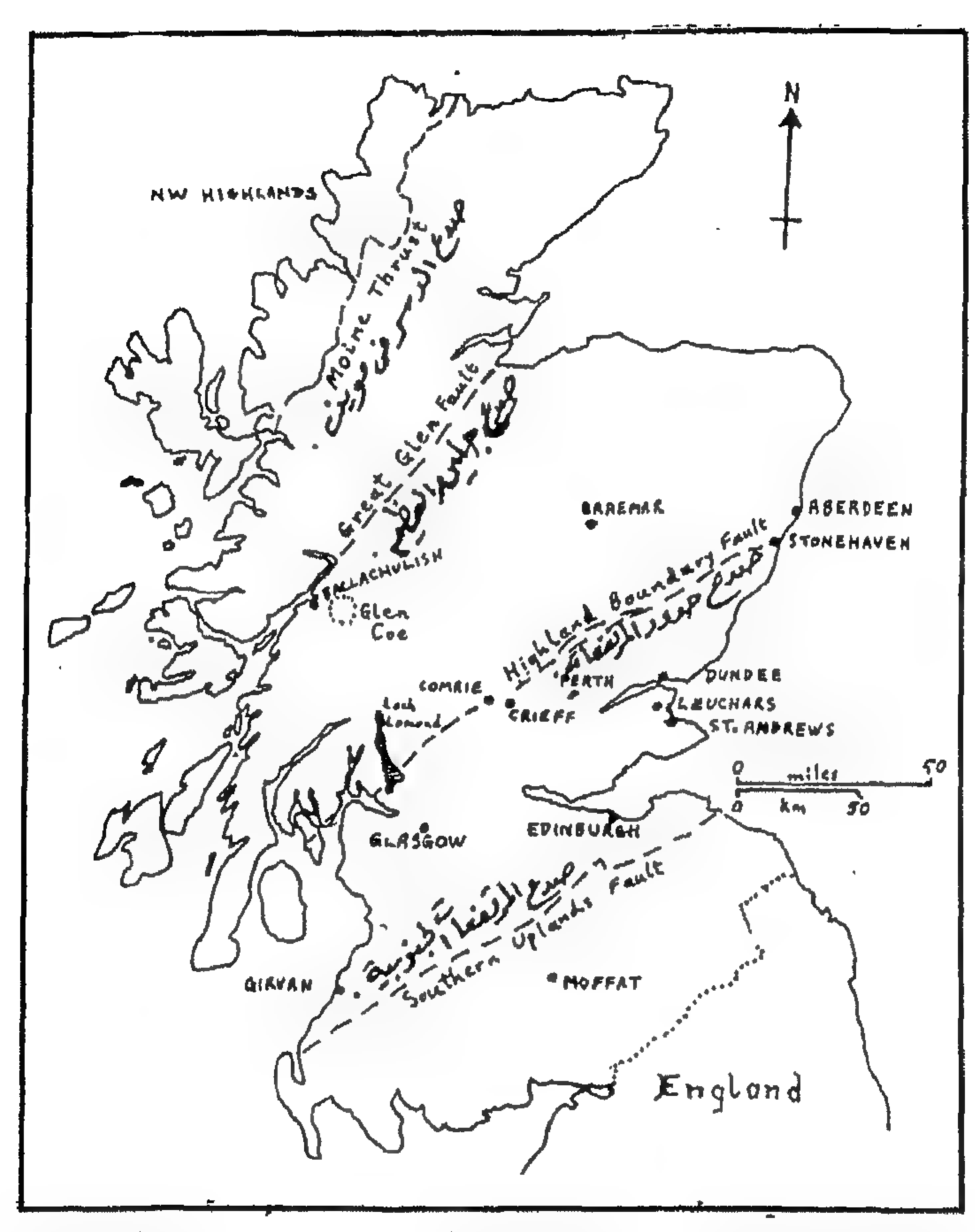
.. وها أنت يا نفرتيتى المصرية، تظهرين بوجهك الجميل، تدء
الناس لزيارة برلين، لا لزيارة مصر، برغم أن لك تمثالاً نصفيًّا آ
فى متحف القاهرة.. ولكنا عنه نيام.. ولقد انتصرت نفرتيتى.. وفاز
برلين بعقد المؤتمر الجيولوجى الأفريقى الرابع عشر بها فى سبتم
من عام ١٩٨٧..

* * *

وينتهى المؤتمر ناجحًا علميًّا وتنظيميًّا كأحسن ما يكون..
ولقد كان الاسكتلنديون معنا كرماء فى غاية الكرم..

قدموا من صنوف الترحيب ما لم يكن متصورًا، حتى الرقه
الأسكتلندى قدموه لنا واشركونا فيه..

وجاء وقت الرحلة الجيولوجية العلمية إلى مرتفعات اسكوتلاند
لنرى خصائصها الجيولوجية الشهيرة، والتى لا ينفك أى كتا
جيولوجيا قيم، أن يذكر تلك الخصائص.. ومن أبرزها الصدو
الشهيرة التى تبدأ من الجنوب إلى الشمال على النحو التالى: صد
جنوبى المرتفعات، ثم صدع حافة المرتفعات، ثم صدع جلين العظ
ثم أخيرًا فى أقصى الشمال الغربى لمرتفعات أسكوتلاندة، صد
موين.. وهى صدوع تمتد بكل عرض الأراضى الاسكتلندية، و



خريطة اسكتلنـدة والصدوع العـظمى تقطع فى ترابها من الشرق إلى الغرب. ظاهرة جيولوجية فريدة ذهبت مثلا عند دارسى الجيولوجيا، بما يسمى بالحركة الكاليدونية «Caledonian movement.»

البحر إلى البحر، ما بين شرق وغرب. والصدع هو كسر فى طبقات الأرض، لا بد أن يكون مصحوبًا بزحزحة لتلك الطبقات على جانبيه، إما إلى أعلى وإمّا إلى أسفل.. وتلك أبسط تعريفات الصدوع.. وباسكوتلاندة ظواهر جيولوجية ذهبت مثلاً فى الدراسات الجيولوجية فى العالم أجمع. ولعل من ذلك ما يُنسب من تلك الظواهر إلى كالدونيا، وهو اسم رومانى أطلق على جزء من بريطانيا يقع شرق مصب نهرى «كايد وفروث»، ويشير استعماله البلاغى الحديث إلى جميع بلاد اسكوتلاندة..

* * *

يطلق الجيولوجيون على جيولوجيا المناطق الجافة.. أنها جيولوجيا جرداء..

بينما يطلق الجيولوجيون على جيولوجيا المناطق المطيرة.. أنها جيولوجيا خضراء.. ذلك أن علم الجيولوجيا، الذى هو علم الأرض، تكوّن مفرداته فى المناطق الجرداء صخورًا صلبة ورمالاً وصحارى مترامية.. فى حين أن مفردات هذا العلم فى المناطق المطيرة، تربة زراعية تكون رحمًا للنبات..

كيف كان ذلك؟!

يذهب العلم الجيولوجى – وهو علم ينهج المنهج الاستردادى – إلى أن الأرض – كوكب الأرض – كانت فى ضحى وجودها، عبارة عن ماء ويابس. وكان اليابس أساسًا صخورًا نارية.. أى صخورًا

صلبة قاسية، نشأت من مصهور نارى، ثم مع البرودة، تصلد فصار صخورًا.

ولو ذهبنا إلى أبعد من ذلك لقلنا: إن الصخور النارية، هى تجمعات لمعادن. وإن المعادن هى تجمعات لعناصر.. وإن العناصر ذرات.. وإن هذه الذرات عبارة عن بروتونات وإليكترونات ونيوترونات.. تلك هى اللبنات الثلاث الأولى فى نشأة عناصر الكون برمتها، وإنما التعدد هنا، جاء من اختلافات فى الأوزان والأعداد الذرية.. نعيد القول ثانية.. فنقول: إن الخالق أراد، فأوجد العناصر ذرات، فاجتمعت العناصر بتبادلات مختلفة، أو منفردة، فكانت المعادن (نحو ٢٥٠٠ معدن)، فاجتمعت المعادن فكانت من بعد انصهار صخورًا نارية.. لكن الحياة على الأرض كانت مُقدَّرة، ويصعب على الحياة أن تسجل تواجداتها فوق الصخور النارية.. وكان لا بد لخالق الصخور النارية، أن يجد لها آفات تفتتها وتحللها فتصير فى بعض حالاتها تربة.. رحمًا للحياة من بعد.. ووسائل التحلل والتفتت بسيطة غاية البساطة. فأضخم الكائنات الحية، تحللها أدنى الكائنات، البكتريا والميكروبات. وأعتى الصخور صلادة، والجبال تطاولًا، تفتتها وتحللها الرياح والأمطار، واختلافات فى درجات الحرارة بين ليل ونهار.. فيما يسمى بعمليات التجوية.. وأفضل ما تنشط فيه عمليات التجوية هو المناخ المطير.. هذا ما نراه هنا فى رحلتنا عبر ريف ومرتفعات اسكوتلاندة.. كل أنواع الصخور الجرانيتية والبازلتية ومابينها.. وقد تفتت سطحها وتحلل، واستحال تربة، سرعان ما يأتيها المخاض فتلد الحياة. وما الحياة

إلا معادن وأملاح وماء، تُنشط البذرة فتدفعها للنماء، فتصير من بعد، زروعًا خضراء تستغلظ وتستوى على سوقها.. ومنها تخرج كل أنواع الحياة الأخرى.. فكل لحم عشب.. إذن فوفرة الأمطار، وتساقطها ما بين تهطال واستمرار، يحيل الصخور إلى تربة يعلوها النبت الأخضر.. ولذلك فيستحيل على الإنسان أن يجد هنا مكانًا لم تسجل الحياة فيه وجودها.. وبعنف فى غابات بكر.. وحقول مزروعة..

من هنا نقول: إن الطبيعة غنية وثرية؛ وهى معطاءة فى كرم.. فى تلك البلاد..

ونقول أيضًا: إن القوم، قوم عمل واجتهاد، أحسنوا الأخذ من عطاء الطبيعة، وأحسنوا الحفاظ عليها..

وأقول أيضًا: ليت قومى فى قريتى المصرية، يحسنون الأخذ من عطاء بيئتهم.. إذن لأحسنوا الصنيع لهم ولبلدهم، وكانوا جديرين باستخدام أساليب الحضارة، فالحضارة أخذ وعطاء..

لنـــدن

.. ومرة أخرى فى الطائرة من أدنبرة إلى لندن..

.. ومرة أخرى أتخطى السحاب، وأنظر إليه من علٍ..

.. ومرة أخرى تشدنى صور متعاقبة من السحاب والغيوم، تتدافع فى السماء بحركة بطيئة لا تكاد تُحس، ولكنها تتحرك، ومع حركتها تتبدل أشكالها وأحجامها وصورها..

.. ومرة أخرى أجدنى أرتشف رحيق الجمال الكونى فى كئوس القلب والروح والنفس، بما يوقع الحب ويثير العجب والدهشة.. إن السحاب من حولى ومن أسفل منى.. على البُعد البعيد، والقرب القريب منى، يبنى قصورًا خيالية غامضة، وجبالاً وكهوفًا ومغارات، وبحارا وصحراوات.. كلها غامضة، يحار الذهن فى جمالها، ويسعد القلب بإيحاءاتها وتدهش النفس لمعجزة أن يكون كل ماتراه العين مياها تبخرت من بحار الأرض، وتحولت إلى سحاب يحمله الهواء، يتلون بين يدىّ من الأبيض إلى الرمادى بدرجاته، إلى مزيج من اللون الأحمر والأخضر والبنفسجى والبرتقالى والأزرق.. وربما ألوان

أخرى لا أدرى بأى اسم أسميها به، أو أى وصف أطلقه عليها.. إن ثقل السحاب يبلغ ملايين الملايين من الأطنان، ومع ذلك يحمله الهواء، تحمله الرياح دون أن يحس به أحد، أو أن يراه أحد، إلى بلد ميت فيحييها.. وأمضى من موقعى فى الطائرة أتأمل السحاب، ومع استمرارية النظر، إلا أن المشاهد تتعدد وتتنوع، وبقدر مايسعف الخيال، أرى الجبال مجسدًا فيها أرى من أشكال، وبقدر مايّسعف العقل أفكر فيها أرى من صور أبدعتها يد القدرة الخالقة.. صور مائية، وياللعجب أراها أمام عينى مجسدة ذات طول وعرض وعمق، وهى لا تلبث أن تسافر حول الأرض لتسقط كأمطار، فتتحول الأرض بعدها من الجدب الى الخضرة.. ياللقدرة، فالأرض بها تهتز وتربو.. إن القلب لا يملك أمام مايجرى من صور الجبال المعجزة تلك، إلا أن يتمتم، سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، وزنة عرشه، ومداد كلماته، ورضا نفسه، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وسبح بحَمْد ربِّكَ قَبْلَ طُلوع الشَّمْس وقَبْل الغُروب﴾.

* * *

فجأة، سقط خيالى فى بئر الذاكرة.. وفى بئر الذاكرة مافيها من تراكمات للبعيد والقريب من الأحداث وكان أول ما عاد به إلىّ الخيال، مشهد التاريخ حين يحكى دون ما مواربة ولا خجل، والتاريخ بطبعه لا يعرفهما.. والتاريخ قد يشهد أمة بأسرها وهى ترتفع فى جو السماء مع العقبان والنور، والتاريخ قد يشهدها أيضًا ويشهد عليها، وهى على أديم الأرض مع بغاث الطيور.. والمرجع فى

الحالين الى القوة والضعف فى تلك الأمة. وذكرت فيها ذكرت فى تلك اللحظة فيلسوفنا الكبير الدكتور زكى نجيب محمود وهو يحاول جهد الطاقة، أن ينفخ فى جذوة أمتنا لتشتعل، وأن ينفض عن نارها التراب فتعود تصهر وتطهر.. تذكرته بحماسه فى كتاباته يريد لأمتنا أن تفيق من ثبات طال، وأن تنفض عنها غبار الزمان، وأن تخرج من كمونها، خروج حبة القمح أو نواة التمر من جماديتها.. وأن تنزاح عن محابس الفكر أقفالها، لتتوقد الشعلة من جديد.. مازالت ترن فى سمعي وأنا فى موقعى ذاك من طائرة تجوب السماء مابين أدنبرة ولندن، صرخة تنطق بها كلمات مكتوبة قرأتها لذاك الفيلسوف، المتقد حبًّا لبلده وأمته.. أول خطوة على الطريق هى أن تُنفخ فينا إرادة أن نحيا، ثم يضاف إلى ذلك إرادة أن تكون حياتنا حياة السادة لاحياة العبيد: سيادة فى العلم، سيادة فى الفكر، سيادة فى الأدب والفن، سيادة بالإباء وبالكبرياء..

ثم هاهى صورة الرجل فى جهاز التلفزة مجسمة واضحة المعالم أمام عينى وهو يصرخ ويقول: إننا نعيش عصر النقلة والحفظة.. أرونى من ابتكر؟ أرونى من قدم إسهامًا فى العلم يحسب لنا من هذا العصر؟ إننا نعيش بمنجزات الحضارة الآنية، لم نسهم فيها إلا بادعاء ماكان من أجدادنا من إسهامات فرعونية، تضرب فى عمق الزمن السحيق، أو عربية فى مشرق الإسلام وضحاه، بحكم أن الحضارات سلسلة متصلة، ماكانت إحداها لتكون، لولم تكن سابقتها.. ولقد قال الرجل: إن الحضارة الفرعونية قد وضعت لنفسها دستورها الحضارى فى أقدم أثر فنى دونه التاريخ المصرى وأعنى أبا الهول،

فمنذ تلك اللحظة السحيقة فى القدم قال المصرى بلغة الإزميل فى يد النحات، لقد اعتزم المصرى أن يحيا حياة تربط أصولها بطبائع الأشياء، ثم تسلم قيادها إلى حكمة العقل، فأبو الهول جسمه أسد ورأسه إنسان أى أن الجسم هو طبيعة فى أقوى صورة له، والرأس تدبير فى أحكم صورة له..

أكاد أفهم من ذلك أن لابد أن تستوى فى عقولنا مفاهيم العصر، وأن نجمع فى مدركاتنا تراثنا السلفي بكل قيمه المثلى، مع ما تميز به عصرنا من روح علمية صناعية ديمقراطية مغامرة مجددة، وأن نقول مع الغزالى: العلم غذاء، والدين دواء، وقد وجب أن تأخذ من العلم بالقدر الذى يكون به الغذاء، وأن تأخذ من الدين بالقدر الذى يكون به الدواء.. ولو بدَّلنا لجاءت النتيجة على عكس ما أمَّلنا..

نعم ياسيدى إننى معك، وأنا من رجال العلم، لا أجد فعلاً فيما نقدم من بحوث علمية ما يجارى العصر أو يلاحقه..

.. إنهم أسموا عالمنا تأدبًا، بالعالم النامى..

.. وهم يسمون بحوثنا- فى الكثرة منها، وتأدبًا أيضاً بالكلاسيكية.. أى التى لم تأت بجديد..

لقد صارت بحور العلم عميقة، وصرنا لا نملك إمكانات الغوص فيها.. ومن يقل بغير ذلك فهو مكابر.. وعلينا أن نبحث عن العلة فى ذلك. ولعلها ليست فى الإنسان المصرى، فهذا الإنسان هو اليوم يقف بشموخ مع كثيرين من أبطال العالم فى الغوص فى بحار العلم، ولكنه لا يكون هكذا إلا وهو بعيد عن مصر..

لماذا؟..

لعل السؤال هنا صعب جوابه، لعلها تراكمات، قد عرفنا بداياتها ولا نعرف لها النهايات، لعله المناخ العام للعلم فى مصر.. لعل فيه حاجة «غلط»..

كتب الكاتبون يومًا فى مصر يقولون.. والأمة المتحضرة العظيمة هى وحدها التى تحترم آدابها وفنونها، وترعى وقار أدبائها وفنانيها.. ذلك أن الآداب والفنون هما جناحا الثقافة الإنسانية، التى تحلق بها فى أجواء الحياة، وتستشرف آفاق المستقبل.. هما نبض الأمة وهما أنبل أدوات التعبير عن روحها وآمالها وأشواقها العظيمة، وهما الوهج المقدس الذى يولد طاقات الإنتاج والقدرة المستمرة على العطاء!! وأين العلم؟! أليس فى هذا ذاتية عند المناطقة؟!! وخرج الفنانون يومًا علينا فى مصر بأفلام عن زوبة الكلوباتية، وشفيقة القبطية.. فأين العلماء؟! وانعقدت للفنون أعياد حضرها رؤساء الدولة.. وتخلفوا عن أعياد العلم.. فأين التكريم؟! كل هذا جميل، ولكن يا سادة، نختلف معكم، ما بالفن والأدب وحده تقوم الحضارات.. فلولا العلم والتكنولوجيا فيما تتغنون به عن الحضارة الفرعونية، ماكان تمثال أبى الهول ولا كان هرم.. ولا كان تحنيط ولا كان معبد.. إن المناطقة وجهابذة الكلام يسلطون الأضواء على الآداب والفنون وحدهما، ونسوا أن ذلك دون العلم، لا يغنى فى حضارة اليوم شيء. إن الرومانسية وشعر الأطلال، والتشبيب والغزل، لم يعد لها اليوم ذات المكان الذى كان.. إن التكريم يجب أن

يكون لمن يمكن أن يدفعهم التكريم لملاحقة العصر، ومنجزات العصر، التى تلاحقنا فى صحونا ومنامنا، إن تهيئة المناخ وإتاحة الفرص للعاملين بالعلم، قمين بأن يحفز الهمم، وجدير بإشعال الجذوة التى لا تشتعل إلا بعيداً عن أرضنا.. ولعلنا نردد هنا مع الشاعر قوله.. «والعيب فينا»..

إن الأدب أو الفن الخلّاق فعلًا، هو الذى يقرأ العلم ويهيئ المناخ للعلم ويكرِّم العلم..

إن الأديب السويسرى الكبير دورنمات، حين سُئل عما يقرأ، قال: أقرأ العلوم الطبيعية فهى لغة العصر.. وحين سُئل عن المسرح، قال: بل التليفزيون هو مسرح العصر.. وتلك جميعًا من منجزات العلم، فكيف نبخس الناس أشياءهم؟!..

نضن على المعامل بالأجهزة!!

ونضن على العالم بالتكريم!!

ونقول إنه بالأدب والفن وحدهما تنهض الأمم!! فبالله أين العلم؟! وأين هى النهضة يافرسان الكلام؟ ولكننى أعود لأقف مع النفس وقفة..

أنا عائد من تجمع علمى كبير، ربما كان أكبر تجمع علمى من نوعه، ولقد رأيت فيه من تقدم بحوثهم العجب، ورأيت من

«كلاسيكية» بحوثنا أيضًا العجب..-

فهل لى إلى تشخيص الأسباب من سبيل؟

أعتقد أن السبيل متشعبة، وبداياتها ضاربة فى ضباب كثيف .. لعلها أولاً الأمية العلمية عند الناشئة، ولعل علاجها هو تبسيط العلوم وحسن تقديمها.. انتبهت من شطحات خيالى هذه، على الصوت الآتى من مقصورة قائد الطائرة، ينبئنا أننا الآن فوق مطار هيثرو، وسنهبطه بعد دقائق..

هذه أنت يالندن.. وفى أقوال سابقة لندرة..
وهذه أنت يا عاصمة المملكة المتحدة.. وفى أقوال سابقة بريطانيا العظمى..

فأما بريطانيا، فاسم اصطلاحى يطلق على تلك البلاد فى العهد السابق على الغزوات الجرمانية، فى القرنين الخامس والسادس. وبعد هذا الغزو، أصبحت الجزيرة تتكون من إنجلترا وويلز وأسكوتلاندة، وتحكمت طبيعة البلاد فى موجات الهجرة والغزو، فالجنوب والغرب يختلفان عن الشمال والشرق، فهما أقل ارتفاعًا ومطرًا، وأكثر خصوبة، واتجه التطور التاريخى من الجنوب والشرق إلى الشمال والغرب. وعند الغزو الرومانى (٥٥ ق م) كانت جميع القبائل البريطانية من «الكلت» مما يتعرض لغزوات من القارة، حدث آخرها من قبائل «البكث» (٧٥ ق. م) وتوثقت الصلات بين البريطانيين و «الكلت» فى أوربا، حتى أن «يوليوس قيصر» أراد

بغزوه إنجلترا، منع مساعدتهم «للغالة» التى فتحها، وجاء الى بريطانيا عدة أباطرة مثل: «كلاوديوس» و «هادريان» ثم ضعفت سلطة روما فيها بعد ذلك، حين قامت الثورات على الحكم الرومانى، وكذا غزوات القراصنة. ولقد أدى انسحاب الرومان من بريطانيا إلى المشاحنات الداخلية بين القبائل المختلفة، وزاد عدد الغزاة، وخاصة من «الأنجلوسكسون والجوت»..

وتعتبر إنجلترا، أكبر قسم سياسى فى جزيرة بريطانيا والجزر البريطانية. وتعتبر إنجلترا نواة الإمبراطورية البريطانية، وتقع ويلز فى غربها وأسكوتلاندة فى شمالها، ويفصلها عن قارة أوربا القنال الإنجليزى ومضيق دوفر وبحر الشمال، مما ساعدها على تعزيز وسائل دفاعها، ولإنجلترا موانئ على مصاب الأنهار فى الجنوب والشرق والغرب، وعلى ساحل البحار والمحيطات التى تحيط بها ويعتبر السطح منخفضاً وخصبًا فى الجنوب الشرقى، وأما فى الشمال الشرقى فتغطيه المستنقعات، وفى الغرب غير مستو، وينتهى بشبه جزيرة «كورنوول»، وفى شمال «الهمبر» سلسلة جبال «بينين» المؤدية إلى منطقة البحيرات ذات المناظر الطبيعية الرائعة - وإلى حيث كنا وكان مؤتمرنا - فى أسكوتلاندة. ولقد استمدت بريطانيا معظم ثروتها الطائلة فى المائتى عام الأخيرة، من الأرض السوداء التى توجد بها صناعاتها الكبرى، لتوافر وجود الفحم والحديد.. ولذلك لم يكن عجيبًا، أن نرى فى شوارع لندن، أكبر الأبنية وأفخمها للهيئة القومية للفحم، والهيئة القومية للحديد والصلب.. وكذلك من المراكز

الصناعية بولايتى «لنكاشير ويوركشير» ومن صناعة بناء السفن والصناعات الأخرى.

وتعتبر أهم المدن الصناعية: «لندن ومنشستر ولفربول وليدز وشفيلد وبرمنجهام وبرستل وبرادفورد وهل». ولقد كانت إنجلترا فى القرن ١٩ تقود العالم فى صادرات السلع المصنوعة. وتكون إنجلترا وويلز وأسكوتلاندة وشمال أرلندا جميعًا، المملكة المتحدة. وحكومتها برلمانية وتتركز السيادة فى العرش متحدًا مع البرلمان، والوزارة مسئولة أمام البرلمان، والكنيسة الرسمية هى كنيسة إنجلترا وعلى رأسها الملكة. والتعليم فى انجلترا بالمجان حتى السادسة عشرة، وبها إحدى عشرة جامعة، أعظمها وأقدمها جامعتا أكسفورد وكمبردج..

تلك هى البلاد التى أهبط عاصمتها.. لندن..

وأما لندن.. العاصمة للمملكة ـ المتحدة اليوم، فهى أكبر مدن الإمبراطورية البريطانية، وتقع على جانبى نهر «تيمز»، وتبلغ مساحتها الكلية حوالى ١٧٩٥ كيلومترًا مربعًا، وتضم أجزاء من مقاطعات «أسكس وكنت، وهرتفوروشر، ومدلسكس وسرى».

والآن أخرج من مطار هيثرو، بعد جولة فى أرجائه وأبهائه ومكتباته التى تحوى النقيض والنقيض، تحوى الكتب والمجلات الجادة، وتحوى المجلات الجنسية ومجلات العراة واضحة بصورها فى صدر المكان.. وكان أمامى أحد سبيلين، إما «المترو» تحت الأرض، وإما الحافلة إلى ميدان فيكتوريا، حيث توجد كثرة من الفنادق،

بحسب ما أرى فى الخريطة التى ستلازمنى فى جولاتى بهذه المدينة الكبيرة.. وفى مثل هذه المدن، لا متسع للوقت عند أحد حتى تستوقفه وتسأله، وإنما تُغنى الخريطة إذا أحسن قراءتها.. ففى خرائط وكتيبات تلك البلاد، كل ما يحتاج إليه السائح ويزيد.. الخريطة والكتيب المرفق بها فعلا أنيقة واضحة، تحوى كل ما يخطر على البال لزائر هذه المدينة الكبيرة. وفضلت الحافلة لأنها تسير على سطح الأرض، ومنها أستطيع أن أمارس هوايتى، التطلع من النافذة.. وبلغت ذاك الميدان الشهير الواسع - ميدان فيكتوريا - حيث تصب فيه تقريبًا كل خطوط المواصلات الداخلية للمدينة، وحيث تبلغه كذلك، وتتركز فيه، كل نهايات خطوط المواصلات عبر كل المملكة المتحدة وخارج حدودها كذلك، فهناك حافلات ما بين هذا الميدان وبلاد وأقطار أخرى كهولندة وبلجيكا وفرنسا والدنمرك والسويد.. إلخ.. مواصلات سهلة ميسرة لا تقف بينها حدود، ولا تحول دون انطلاقها جوازات ولا شروط.. وأين نحن فى أمتنا العربية من ذلك؟ أين نحن من حافلة تركبها، فإذا هى تسير باسم الله مجريها، إلى شرق أو إلى غرب، فيتصل الناس ويسيحوا، وتقوى بينهم الروابط؟. ألسنا كما نقول أمة عربية واحدة؟!!

***

ونزلت وزميلى دكتور سيد عبدالعزيز من جامعة القاهرة، فى فندق «سيدار» أو «سيدار هاوس» ٣٠ شارع «هوغ، فكتوريا، س. و١٠» والذى كُتب على لا فتته عبارة «سرير وإفطار - ماء

بارد وساخن فى كل غرفة». العاملون فى هذا الفندق ذى الطوابق الثلاثة، لا يزيدون عن ثلاثة: مدير الفندق، وعاملة مطبخ، وسيدة بولندية فى منتصف العمر للنظافة.. والاثنتان تؤديان عملهما فى الفترة الصباحية فقط، ويتبقى مدير الفندق، الذى يوزع مفاتيح الغرف والفندق على نزلائه، وعلى كل أن يفتح الباب الرئيسى لنفسه، حين يخرج أو يعود.. السيدة البولندية، أنيقة نظيفة، وجميلة كذلك. تحمل إلينا الإفطار كل صباح، وتسألنا عن السجائر المصرية.. إنها غادرت بلادها بولندا من فترة، بسبب ظروف بلادها الصعبة كما تقول. وهى تعمل وترسل لذويها هناك، بعض دخلها.. وفى حدود الساعة العاشرة صباحًا، تركب سيارتها وتعود إلى بيتها وزوجها البولندى العجوز، وهو أفضل من الوحدة كما تقول.. ولسان حالها يقول كما نقول نحن مصر: «نعمل إيه؟ دى القسمة والنصيب»..

لندن مدينة كبيرة، ونريد أن نسيح فيها، ونستغل وقتنا أفضل استغلال.. تطلعنا إلى الخريطة فإذا المزارات السياحية واضحة بارزة، الطرق إليها محددة كأفضل ما يكون التحديد..

هذا هو المتحف البريطانى الشهير.. فليكن أول مزاراتنا ومن بعده شارع المتاحف وما فيه..

والمتحف أساسًا، مُنشأة علمية وثقافية، هدفها عرض التراث الإنسانى، ومجموعات التاريخ الطبيعى أو الصور، وتطور التقدم العلمى والصناعى والفنى، بأساليب عرض جذابة. ويعتبر المتحف معهد بحث ودراسة وتثقيف للباحثين ولأفراد الشعب صغارًا وكبارًا.

ولقد رأيت ذلك فى متاحف لندن.. الكل يدقق ويتأمل، ويمعن النظر فى رهبانية وخشوع.. يريد أن يعلم مالم يحط به علمًا، فى مدرسته أو كليته. المتاحف بنظامها وترتيبها، مهيأة لذلك، والناس بحب العلم وشغفهم به، أيضًا مهيأون.. لا قزقزة لب، ولا نكات، ولا ضحكات بصوت مرتفع.. كأنما الجميع فى قاعة درس أو رحبة معبد.. وإن نسيت فلا أنسى أبدًا، تلك الطوابير من الأطفال الصغار، فى سن أقل من الثانية عشرة، ومعهم مُعلمتهم، يقفون وقوف المتعطش لماء يروى ظمأه، والمعلمة الشابة الأنيقة، التى تنطق ملامحها بالنشاط والحيوية تشرح لهم فى همس وتوضح ما يرون.. اقتربت منها وقلت هامسًا:

وهل أطفالك هؤلاء فى هذه السن الصغيرة يدركون ما يرون؟

وبدهشة ظاهرة فى عينيها، نعم، ولم لا؟.. وإن لم يدركوه كله فيجب ألا نفوته كله.. إنهم يعرفون اليوم، وغدًا يجيدون ما يعرفون.. إننى إن قلت لهم فى المدرسة طائر كذا أو كذا، أو نبات كذا أو كيت، أو صخر كذا أو كذا.. كيف يدركون؟ أليس الأفضل أن أقول، فيرون ما أقول أو أتحدث عنه، إن ساعة أو بعض ساعة هنا، تعدل أيامًا فى حجرات الدرس المغلقة..

.. وتبسمت شاكرًا وأنا أقول لها: صدقت والله.. وليتنا نفعل مثلما تفعلون.. ويرجع تاريخ إنشاء المتاحف بمفهومها الحديث إلى القرن السابع عشر فى أوربا، حينما آلت مجموعات الآثار والفنون من الملوك والأمراء إلى الحكومات لينتفع بها الشعب..

وعن طريق الحافلات الحمراء ذات الطابقين فى شوارع لندن، بلغنا المتحف البريطانى.. وهو الدار القومية لحفظ التراث الأدبى والعلمى والفنى بالمملكة المتحدة، به أقسام للمخطوطات الشرقية والغربية، والكتب المطبوعة، والتحف والآثار والعملات، والأنواط، والبرديات واللوحات الفنية.. وهو متحف قديم أنشئ عام ١٨٥٣م، وكانت نواته مجموعة «سير روبرت بروس»، ومجموعة «هارلم» ومجموعة «سلون»..

ويستطرد محدثنا من أدلاء المتحف بلباسه المميز والمزركش، وغطاء رأسه التقليدى وصوته الجهورى.. يستطرد قائلا:

أُضيفت بعد ذلك مجموعات «جورج الثانى وجورج الثالث»، ومن ثم، تتابعت الزيادات.. وبالإضافة إلى مجموعات المخطوطات وما إليها، توجد بالمتحف مجموعات ضخمة من آثار شتى الحضارات، أذكر فيها رأيت منها، نسخة الكتاب المقدس القديمة، التى نقلت إلى روسيا القيصرية، من دير القديسة كاترين بشبه جزيرة سيناء، واشتراها المتحف من روسيا السوفيتية. وبه كذلك حجر رشيد المشهور، والذى اكتشفه الفرنسى «شمبليون»، وبه فكت رموز الكتابات المصرية القديمة، فكانت إيذانًا برفع سُتر النسيان عن واحدة من أعرق حضارات البشرطرًا.. الحضارة الفرعونية..

ويستطرد محدثنا من أدلاء المتحف المميزين بلباسهم، وقد تحلقنا فى مجموعات حول عدد منهم، قائلا:

لإنجلترا تاريخ عريق!! وأسأل نفسى وأنا أستمع إليه «أين هو

من تاريخ مصر فى عراقته؟».. منذ حكم الغزاة الذين فتحوها فى أوائل تاريخها من «كلت ورومان وسكسون ودنماركيين».. ثم بدأت فى ٨٦٥ مقاومة الملك «الفرد» وخلفائه التى انتهت بطرد «الدانيين» (الغزاة الذين قدموا من الشمال)، وتمكنت الممالك المتفرقة القائمة بإنجلترا فى القرن العاشر، من صد قبائل «الفايكنج والأرلنديين والنرويجيين». وكان لفتح قبائل الإنجليز والسكسون نتائج هامة على الثقافة الإنجليزية ونشر المسيحية. وانتهت هذه الفترة بالفتح النورمندى عام ١٠٦٦، على يد «وليم دوق نورمنديًا» الفرنسية. وتركزت السلطة فى يد «وليم» الفاتح (الأول)، ثم فى يد خلفائه، ولكن الأشراف تمكنوا من الحد من سلطة الملك، بانتزاعهم الوثيقة الدستورية الخطيرة الشأن، والمسماة «العهد الأعظم»(ماجنا كارتا) من الملك«جون» عام ١٢١٥..

ويستطرد الدليل قائلا:

سترون هذه الوثيقة، وترون معها وسائل الحرب والدفاع ضد الغزاة من الخارج، والتى استخدمت أيضًا فى النضال العنيف والحروب، التى من بينها «حرب المائة عام»، والتى بدأت عام ١٣٣٧ م وحرب «الوردتين» التى قامت بسبب التنازع بين أسرتى «بلانتاجنت ولنكاستر»، وانتهت باعتلاء «هنرى» السابع العرش فى عام ١٤٨٥م. وهو مؤسس أسرة «تيودور» التى يبدأ بها تاريخ إنجلترا الحديث، ونمضى إلى قاعات المتحف القديم لنرى وسائل الحرب ودروع الفرسان القدامى من الحديد والصلب. دروعًا

كانت تغطى كل أجسام المقاتلين وخيولهم، ولا أدرى كيف كانوا يتحركون تحت ثقل كل تلك الأوزان..

ومن بين المخطوطات فى المتحف البريطانى، أتبين أن حكام إنجلترا منذ عهد «وليم الفاتح»، كانوا على النحو التالى: «النورمنديون» (١٠٦٦ - ١١٥٤)، أسرة «بلانتاجنت» (١١٥٤ - ١٣٩٩)، أسرة «لنكاستر» (١٣٩٩ - ١٤٦١)، أسرة «يورك» (١٤٦١ - ١٤٨٥)، أسرة «تيودور» (١٤٨٥ - ١٦٠٣)، أسرة «ستيورات» (١٦٠٣ - ١٦٨٨)، أسرة «أورانج» (١٦٨٨ - ١٧١٤)، أسرة «درهانوفر» (١٧١٤ - ١٩٠١)، أسرة «ساكسى جوبرج جوتا» (١٩٠١ - ١٩١٧) ثم أسرة «وندسور»(١٩١٧ -) وأخرها الملكة اليزابيث الثانية (١٩٥٢ -)، ملكة المملكة المتحدة الحالية.

* * *

وكما فعلنا نحن هنا فى مصر، وحسنًا فعلنا، من تحويل سجن القلعة الشهير، والممتد تاريخه منذ أيام المماليك، ودوره الشهير كسجن سياسى، ثم حولناه أخيرًا وفى شهر يناير ١٩٨٦، إلى متحف للشرطة، فقد فعلت فرنسا كذلك بسجن الباستيل، وفعلت إنجلترا ببرجها الشهير، برج لندن. وتلمسنا موقع البرج على خريطة لندن السياحية المفصلة تمام التفصيل وأوضحه، فإذا بالبرج على الشاطئ الشمالى من نهر التيمز. والطريق إليه إما عبر حافلات برية أو نهرية، وشددنا الرحال إلى هناك، فإذا به حصن قديم ومقر ملكى ويشغل من المساحة نحو ١٣ فدانًا إنجليزيًّا، وصار الآن دار صناعة

ومتحف. لقد كان فى فترة من فتراته ولعدة قرون سجنًا لكثير من المعتقلين المشهورين، وبلغنا بوابة ذاك البناء الهائل سيرًا على الأقدام على حافة خندق جاف يحيط به، وهناك كانت العيون الفاحصة من فرسان الحرس الملكى مرتدين ثيابًا تيودورية، تترصد الداخلين حرصًا على أمنه وأمانه. واستقبلنا الأدلاء بملابسهم المميزة الزرقاء اللون، وأغطية رءوسهم المرتفعة الحمراء، واختص كل جماعة بدليل يشرح لهم تاريخ البرج ويقودهم إلى مزاراته. هاهو البرج الأبيض الذى أقيم فى الوسط تقريبًا عام (١٠٧٨)، ثم هاهو برج «ويكفيلد» الذى يضم مجوهرات التاج البريطانى... وهذه بوابة «الخونة»، وذاك هو «البرج الدموى».. ولهما معًا شهرة تاريخية، حيث قطعت رقاب الكثيرين فيهما، والمبنى فى مجمله قديم قديم، جدرانه يزيد سمكها فى بعض أماكنه على المتر، وسراديبه ضيقة صاعدة هابطة، عبر درج يضيق أحيانًا حتى ليسير فيه الإنسان عنوة، وأسواره يزيد سمكها على المترين.. ونلمح من فوقها نهر «تيمز»، وكذلك آثار الدمار، الذى أصاب الجدار الشمالى فى اثناء الحرب العالمية الثانية.. وفى أحد قاعات ذاك المتحف، توجد حُلل الحرب والقتال وعدتها فى العصور الوسيطة. وكيف كان المقاتل يرتدى درعه من الصلب فيتغطى به من قمة رأسه إلى اخمص قدميه. يرى من خلال ثقوب، ويتحرك من خلال مفاصل ويمتطى جوادًا، حُمل هو أيضًا بدرع من الصلب.. وتلك عدة القتال، حراب، وبلطات وسكاكين وسهام.. كلها مما ينوء بحمله الأقوياء..

ويقول الدليل.. لقد فقدت لندن أهميتها بعد أن تركها الرومان

فى القرن الخامس، ثم ظهرت أهميتها مرة ثانية فى عهد «الفرد» عام (٨٨٦)، وأما هذا البرج – برج لندن – فقد بنى نواته «وليم الأول».

* * *

من معالم لندن المتحفية، المتحف البريطانى، ومتحف العلوم، ومتحف فيكتوريا وألبرت ومتحف التاريخ الطبيعى، والمتحف الجيولوجى.. وجميعها كما تشير الخريطة فى شارع المتاحف.. وفى المتحف الجيولوجى ، بشارع المتاحف بلندن "Exhibition Road» جنوبى الهايد بارك، وممتدًا بين طريقى «كينسنجتون وكرومويل»، توجد أكمل مجموعة من الصخور والمعادن، ممثلة لكل ما عُرف عن صخور الأرض ومعادنها. وإن أنس لا أنسى تلك النماذج الرائعة لمقاطع القشرة ، والقبة السماوية، وتحركات النجوم والكواكب فيها، وانفجار البراكين وقعقعة الزلازل.. جميعها ممثلة بالصوت والحركة والصورة، حتى أننى انتابنى قدر من الهلع، وأنا فى موقع يمثل حركة زلزالية..

أما متحف التاريخ الطبيعى، فحدث عنه ولاحرج، من حيث الشمول والدقة، وطريقة العرض لكل ما فى الغلاف الحيوى لكرتنا الأرضية.. ولقد شدنى تمثال رائع كبير، بأكبر من الحجم الطبيعى بقدر كبير للعالم الجليل «داروين»، صُنع من الرخام الأبيض، وهو جالس على مقعده، واضعًا ساقًا فوق أخرى.. واتأمل ذلك الباحث الداهية، فأرى فى عينيه قدرًا كبيرًا من الذكاء.. والجميل فى غالبية ما رأيت

من متاحف - وكما فى متحف اللوفر بباريس - تلك الإذاعات المحلية التى لا تكلفك إلارفع سماعة صغيرة لتلتقط أذناك، حديثًا شجيًّا واضح الألفاظ، سهل المعانى، يشرح لك ما ترى عيناك، ويحدثك حديثا خاصًّا عن الظاهرة التي تراها. وبجانب «داروين»، سمعت، وعلى انفراد حديثًا طليا، أنقله لكم: لقد حير سؤال «ما عمر الأرض؟» عقول الناس منذ بدء المعارف البشرية. ونحن حتى اليوم ليس بمقدورنا أن نعطى إجابة أكيدة عن هذا السؤال، كما لا يستطيع أحد تفسير معجزة الكون.إلا أن علمى الفلك والچيولوچيا، وغيرهما، أمدانا بفكرة بسيطة عن الطريقة التى ربما تكونت بها الأرض، إلى جانب الوفير من المعلومات المتعلقة بالتغيرات التى طرأت على الأرض ذاتها، وكان الاعتقاد السائد لدى كل الناس إلى حين بدء العلم الحديث فى القرن السابع عشر، أن العالم الذى نعرفه اليوم بقاراته ومحيطاته، كان وظل هكذا أبد الدهر.

إلا أننا نعرف اليوم أنه خلال ملايين السنين التى مرت، طرأ على الأرض تغير مستمر. ففى عصور سحيقة كانت مساحات من اليابسة كما نعهدها اليوم عبارة عن بحار، كما أن بعض أجزاء الأرض التى تغطيها المياه فى هذا الزمان، سبق لها أن كانت جزءاً من اليابسة. وحتى التلال والجبال لم تكن على الدوام على ما هى عليه الآن... وكانت حدود القارات كما نألفها الآن، تختلف تمامًا عن حدودها بالأمس، قريبه والبعيد...

وإذا ما عدنا القهقرى إلى أزمنة سحيقة تفصلنا عنها ملايين السنين، نجد أن سطح الأرض - كوكب الأرض - كان خاليًا تمامًا

مما نسميه اليوم قارات ومحيطات، نظرًا لأنه كان سطحًا ملتهبًا وساخنًا إلى الحد الذى لم يكن يسمح بوجود سائل... كالماء... ولم يكن حتى قد برد لينكمش ويتجعد إلى مرتفعات ومتقعرات كما هو اليوم. ويرى فريق الفلكيين أنه منذ نحو خمسة آلاف مليون سنة مضت، تكونت ما أسموه أم الشمس فى الفضاء الواسع من السدم (السحابة الغازية الترابية) أو مادة الكون الأولى، أو الأتربة الكونية، ثم تميزت أم الشمس إلى أنوية تختلف فى حجومها، فكانت الشمس وكواكبها السيارة. احتلت الشمس المركز الأوسط لتلك المجموعة وراحت بقية الكواكب تدور من حولها، تلك نظرية فى نشأة المجموعة الشمسية، والأرض منها. وهناك نظرية أخرى تقول : إن الأرض جزء انفصل عن الشمس إبان دورانها، فهى جزء منها.

ولئن اختلفت النظريتان ، نظرية نشأة الأرض والشمس متزامنتين، أو النظرية المدية (أى الانفصال عن الشمس بعد تكوين الأخيرة)، إلا أنهما يتفقان فى أن القشرة الخارجية لكوكب الأرض راحت تبرد، فتتصلد، فتتكون منها الصخور، فى حين تسرب ما فيها من غازى الأكسجين والأيدروجين، وغازات أخرى مكونة الغلاف الجوى الذى يحيط بالكرة الأرضية، بعد ذلك بزمان، وعندما بردت الغازات بحيث تكاثف منها بخار الماء، ربما هطلت أول أمطار على الأرض، ثم ظلت أبواب السماء مفتوحة بتهطال مستمر، كلما لامست المياه سطح الأرض الساخن، أعيد تبخيرها ليعاد تكثيفها، ثم ليعاد تساقطها، وهكذا دواليك.. حتى استقر الماء على الأرض فى بحار ومحيطات...

– والقارات هى أيضًا فيها أقوال.. قالوا، نشأت هكذا قارات منفصلة..

– وقالوا.. بل كانت كتلة يابسة واحدة، ثم زُلزلت الأرض زلزالها، فتشققت، فزحفت كل كسرة بعيدًا عن سواها.. ويقولون فى ذلك، ارجع فى خيالك قارتى أفريقيا وأمريكا اللاتينية أو الجنوبية، وستجدهما يتطابقان..

ومن المحتمل أن الحياة ظهرت لأول مرة على الأرض منذ ما بين ٣٠٠٠ و ٢٧٠٠ مليون سنة مضت. وتدريجيا، تحولت بعض الكائنات البحرية إلى أخرى برمائية، ثم البرمائيات إلى زواحف، وبعض الزواحف إلى ثدييات.. وأخيرًا جدًّا.. كان الإنسان..

جاء الإنسان وتحضر وتعلم.. وراح يبحث فى تاريخ الأرض فيما يسمى بالچيولوچيا التاريخية، عبر النهج الاستردادى، مستخدمًا كل ما فى جعبته من معارف، وما حصَّل من علوم بحيث يصل إلى تصور مسلسل لما مر بالأرض من أحداث صنعت تاريخها الجيولوجى الطويل الضارب فى ظلمات الزمان بجذور لا يستبينها الإنسان بوضوح وجلاء. وكان ذلك بهدفين:

* أولهما: تقدير عمر الأرض تقديرًا يكون أقرب ما يمكن للحقيقة، على ما يتصورها هذا الإنسان.

* وثانيهما: التعرف على، ومحاولة ترتيب الأحداث الجيولوجية التى تعاقبت على الأرض منذ نشأتها.

وتستفيد الجيولوجيا التاريخية فى إيضاح هذه الصورة من دراسة نوعين من التطور، هما:

* التطور العضوى، أى تطور الغلاف الحيوى للأرض، بما فيه من نبات وحيوان وما بينهما..

* التطور الغير العضوى، أو تطور البيئة، حيث يندر أن يحدث تغير أو تطور فى ظروف البيئة الطبيعية، دون أن يتبعه تغير أو تطور فى المناحى العضوية للكائنات الحية: والبيئة تعنى كل العناصر الطبيعية والحياتية، التى توجد حول وعلى وداخل سطح الكرة الأرضية، أو بمعنى أدق سطح قشرتها.

فالهواء ومكوناته، والطاقة ومصادرها ومسراها، ومياه الأمطار والبحار والأنهار، والتربة وما يعيش عليها أو فيها - كرحم للحياة - والإنسان فى مجتمعاته وبمختلف نشاطاته.. كل هاتيك العناصر هى مكونات البيئة، وتطورها هو تطور للبيئة. ولا شك أن كل تلك العناصر تعتمد علي بعضها اعتمادًا قد يكون كليًّا أوجزئيًّا.. فكل لحم عُشب، وكل عُشب يستمد مقومات حياته من أغلفة الأرض الهوائية والمائية والصلبة.. بل إن الغلاف الحيوى على الأرض يوجد عند التقاء تلك الأغلفة الثلاثة معًا.

فالنباتات الخضر، وغيرها من كائنات تستطيع استخدام مواد غير عضوية وبسيطة فى صنع مواد عضوية معقدة، تعرف بمنتجات الغذاء الأولية، وغيرها مستهلكة لذاك الغذاء...

أما التطور العضوى.. فمفهوم يتضمن الاعتقاد، بأن الحيوانات والنباتات الحية، تكونت من أشكال سبقتها نتيجة تحول تدريجى مستمر. وتقضى هذه النظرية بأن الحياة ظهرت أول ما ظهرت فى صورة كتلة جِبْلية (بروتوبلازمية) أولية بسيطة، يحتمل أن تكون قد نشأت فى البحر بداية. وهو عكس مبدأ الخلق المستقل، القائل بأن كل كائن حى قد خلق خلقًا خاصًا، وأنه غير قابل للتحول أو التطور.

ويستطرد الحديث المسموع عبر مسماع خاص بجانب تمثال «داروين» فى متحف التاريخ الطبيعى بشارع المتاحف فى لندن.. بدأ إدراك الإنسان للتطور منذ الإغريق القدماء، وإن يكن مبدأ الخلق المستقل قد ظل فى مأمن، باعتباره التفسير الحرفى للجزء الأول من سفر التكوين، حتى ظهرت بدايات نظرية التطور بعد منتصف القرن السادس عشر، حين اخترع المجهر وبدأت دراسات التصنيف وعلم الأجنة.. التى مكّنت من رؤية الخلايا التناسلية، مما ساعد على دعم فكرة التطور. وأظهرت مشاهدات «لينيوس» لكثير من التغيرات بين أفراد النوع، ميلاً نحو الاعتقاد فى تغير النوع. ورأى «بوفون» من دراساته فى التشريح المقارن أن للاستعمال والإغفال أثرا فى تشكيل أعضاء الفقاريات. وعارض «كوفييه» رأى «بوفون». وكذلك رأى «لامارك» صاحب أول نظرية تطورية واضحة. واعتمد تفسير «لامارك» على توارث الصفات المكتسبة. وكان «ايرازموس داروين» جد «تشارلس داروين» قد تقدم بنظرية شبيهة.. ووضعت نظرية «جيته» عن

تحور أو تحول الأشياء، والتى فسرت نشأة جميع الأجزاء الزهرية من الأوراق – وضعته فى صفوف العلماء التطوريين، حتى جئت أنا «تشارلس داروين» (١٨٠٩ – ١٨٨٢) بنظريتى الداروينية (١٨٥٩)، وهى رأى فى التطور كان له أثر كبير، لا فى الميدان البيولوجى وحسب، بل فى الفلسفة وميادين المعارف الأخرى، لما حوته من بيانات عن تطور الأشكال الحية جميعها من أصل واحد مشترك. فلقد لاحظت نزعة الكائنات نحو التضاعف العددى الرياضى مع ثبات أعداد النوع الواحد تقريبًا، فخلصت إلى أن هناك كفاحًا من أجل البقاء بين أفراد النوع الواحد، وأكد وجود تغير فردى فى داخل النوع، وأن الأفراد ذات التغير الأكثر ملاءمة يكون لها حظ أوفر فى البقاء طبقًا للانتخاب الطبيعى.

ولقد لقيت الداروينية التى تسمى بمذهب الانتخاب الطبيعى، من علماء القرن الحالى بعض النقد، لعدم تفرقتها بين التغيير المكتسب الذى لا يورث، والصفات الجينية التى تورث، ولذلك أدخلت على الداروينية تحويرات حتمتها المعرفة الحديثة بأصول الوراثة، ويكاد يعتنق الداروينية «المتطورة»، كثرة علماء العصر الحديث.

ومن الدراسات الجيولوجية أمكن استنتاج أنه كلما كان هناك تطور أو تغير فى ظروف البيئة الطبيعية، كان هناك بالتالى تغير أو تطور فى النواحى العضوية. ولاغرو، فقد كانت الكائنات الحية فى سلسلة مستمرة من التأقلم والتكيف مع البيئة. وعندما تقرر أن لكل مجموعة من طباق الصخور الرسوبية مجموعة من الأحافير

خاصة بها، تختلف عما فوقها وما تحتها، نشأ الاعتقاد بأن الأرض مرت فى تاريخها الطويل بسلسلة من العصور الجيولوجية، يمتاز كل منها بأنواع خاصة من الكائنات الحية.

وساد اعتقاد بأن كل عصر چيولوچى - بناء على ذلك - قد انتهى بكارثة أهلكت ما ساد فيه من حياة، ثم عادت القدرة الخالقة، فأنشأت أنواعًا جديدة للعصر الذى يليه.. وسميت تلك النظرية، بنظرية الكوارث وإعادة الخلق..

ولما تقدم البحث العلمى، ظهر أن بعض أنواع الكائنات - من خلال أحافيرها - توجد فى أكثر من عصر جيولوجى واحد، وأن بعض الأنواع المعروفة فى عصر معين تتشابه لدرجة كبيرة - مع اختلاف بسيط فى تفاصيل التركيب - مع أنواع أخرى فى عصر سابق أو لاحق. فكان - من ثم - الاستنتاج الطبيعى أن تلك الكوارث، وإن تكن حدثت فى بعض أجزاء من الأرض - إلا أنها لم تكن عامة، وأن الحياة على هذا الكوكب سلسلة متصلة لم تنقطع منذ بدأت. وذلك ما أثبتته نظريات التطور، وعلى رأسها الداروينية بتحويراتها.. وأصبح مفهومًا اليوم أن الحياة منذ ابتدائها على وجه الأرض، هى دائما مستمرة ولكنها فى تغير وتحول بطىء وأن من الأنواع البدائية البسيطة، نشأت تدريجيا أنواع أرقى فأرقى.. حتى كانت أرقى الأنواع ذات الجسم المركب فى نظامه.

ذاك هو أنا «تشارلس روبرت دارون»، العالم الطبيعى الإنجليزى، حفيد «أرازموس»، وابن روبرت الطبيب. ودرست

الطب بأدنبرة، تلبية لرغبة أبي، ثم بدأت أدرس العلوم فى «كيمبردج». وكان شغفى بالتاريخ الطبيعى، سببًا فى تعرفى «بجون هنزلو» عالم الجيولوجيا والنبات. واستطعت عن طريقه أن أقتنص الفرصة لأقوم برحلة بحرية، مدة خمس سنوات على الباخرة «بيجل» أخصائيًّا فى التاريخ الطبيعى. وكانت هذه الرحلة سببًا فى بداية حياتى فى ميدان الكشف والمشاهدة والبحث، وكتابة الحقائق المرتبط بعضها ببعض، مما أدى فى النهاية إلى تكوين رأيى عن التطور، المعروف الآن بالداروينية. (وقد وصل «أ. د. ولاس» مستقلا إلى نظرية مشابهة. وقد وصفت فى كتابى «أصل الأنواع» (١٨٥٩) أسس نظريتى والدلائل عليها بطريقة فذة رائعة، كما وضعت نظريتى عن أصل الشعاب المرجانية التى قبلها الكثيرون. ومن أعمالى الأخرى أصل الإنسان والانتخاب بالنسبة للجنس (١٨٧١) وتنوع الحيوانات والنباتات تحت الاستئناس (١٨٦٧). ولى، ابنان: فرانسس دارون (١٨٤٨ - ١٩٢٥) عالم نباتى، والثانى ج. هـ. دارون (١٨٤٥ - ١٩١٢) وكان حجة فى علم الكون.

* * *

بعد ذلك، كان لا بد من زيارة بقية تلك المتاحف والاستمتاع بدقة العرض ونظامه مع ندرة وروعة المعروضات. ولا تخطئ العين أبدًا فخامة وضخامة مبانى تلك المتاحف، ولعل ذلك من آثار ومخلفات الاستعمار البريطانى وامتصاصه لدماء شعوب عديدة وخيرات بلاد كثيرة.. ومما جذبتنا رؤيته كذلك المعارض الفنية بلندن مثل «تيت

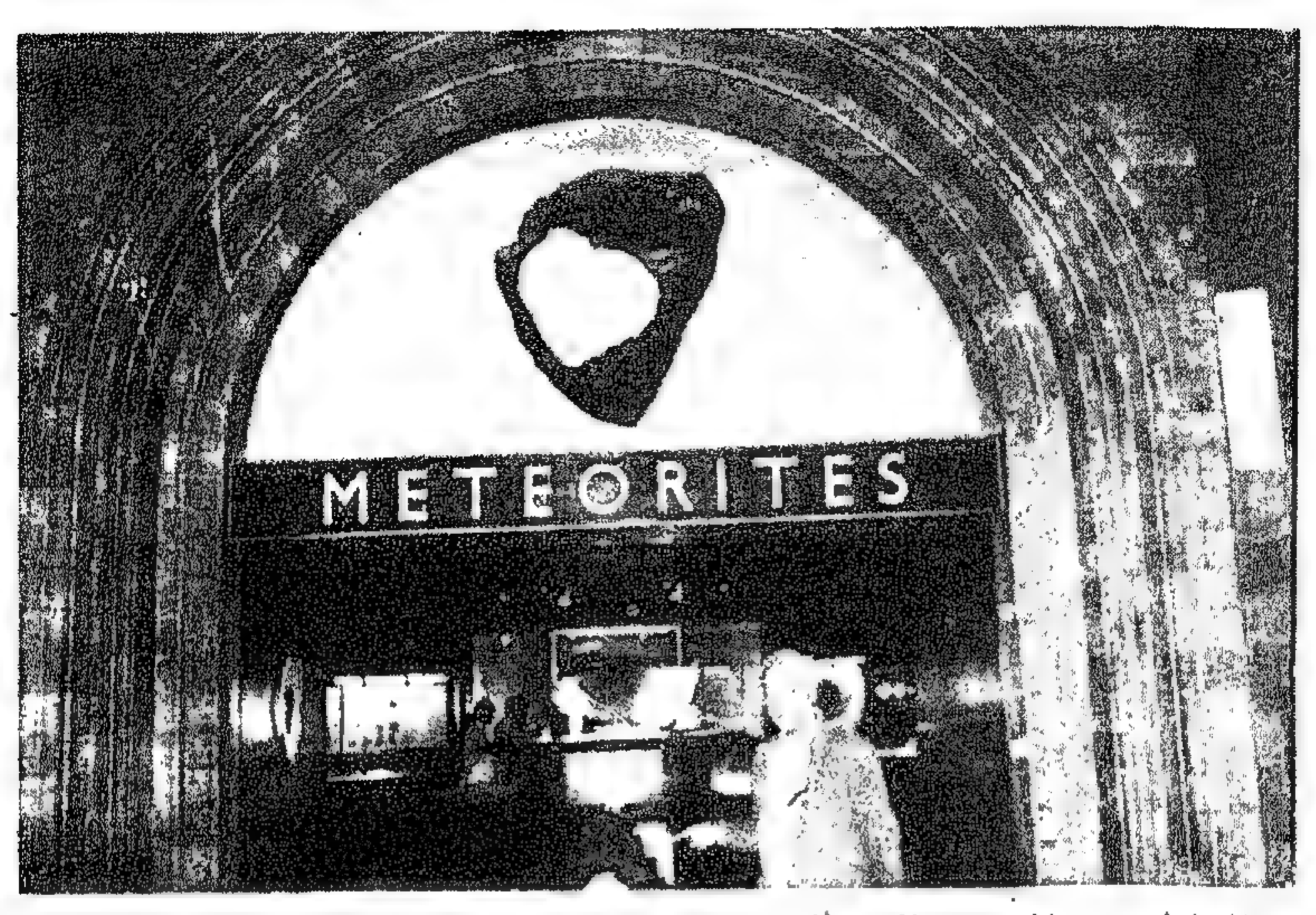
جاليرى وناشيونال جالرى» ومعرض تحف «ولاس» وجامعة لندن الشهيرة فى «بلومزبرى»، والكلية الإمبراطورية (Impire College).. إلخ. ولا يفرغ المرء من التأمل والمتعة بالأبنية وبالنظافة وبالنظام فى أشهر شوارع لندن مثل فليت ستريت وستراند وبيكاديللى ووايتهول وبول مول وداوننج ستريت» حيث مقر مجلس الوزراء البريطانى، و«لمبارد ستريت وبوند ستريت وريجنت ستريت».. إلخ.. وجميع تلك الشوارع لا تخلو من لمسة فن تتمثل فى تمثال أو نافورة، أو حتى الشكل العام والمنسجم للمبانى فيها..

ومن أكثر ما لفتنى فى لندن، كثرة الحدائق والمتنزهات..

وبنظرة إلى الخريطة السياحية المعنونة «مرشد الزوار إلى وسط لندن» ألمح المساحات الخضراء العديدة الآتية: «بريوز هيل، ريجنت بارك، حدائق كينسينجتون، هايد بارك، جرين بارك، سان جيمس بارك ثم باتريسيا بارك».. الخ..

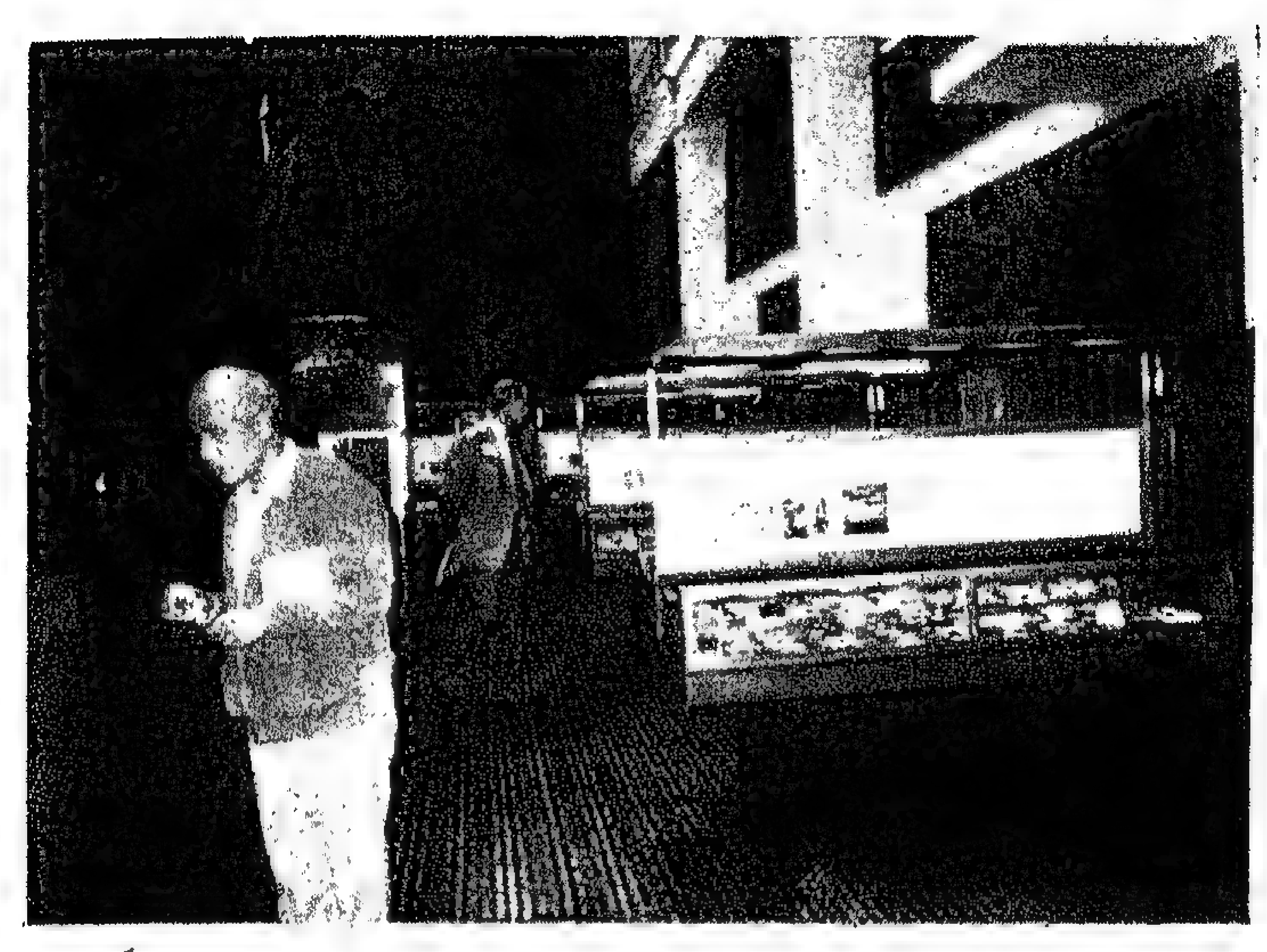
وكان لا بد من زيارة أشهر تلك الحدائق، وأكبرها مساحة «الهايد بارك».

وهى متنزه فى غرب لندن تبلغ مساحته ٣٦٣ فدانًا إنجليزيًّا، كان مرتعًا للغزلان، ثم مكانًا يعقد فيه السباق، ثم استحال إلى حديقة عامة تشتهر ببحيرتها الصناعية المسماة «السربنتين». و«الهايد بارك» تمتاز بأشجارها الباسقة العالية والمنسقة تمام التنسيق.. كما أن شهرتها كمنبر مفتوح، تفوق كل شهرة لها اخرى.. ففى ساحة بوابة الحديقة

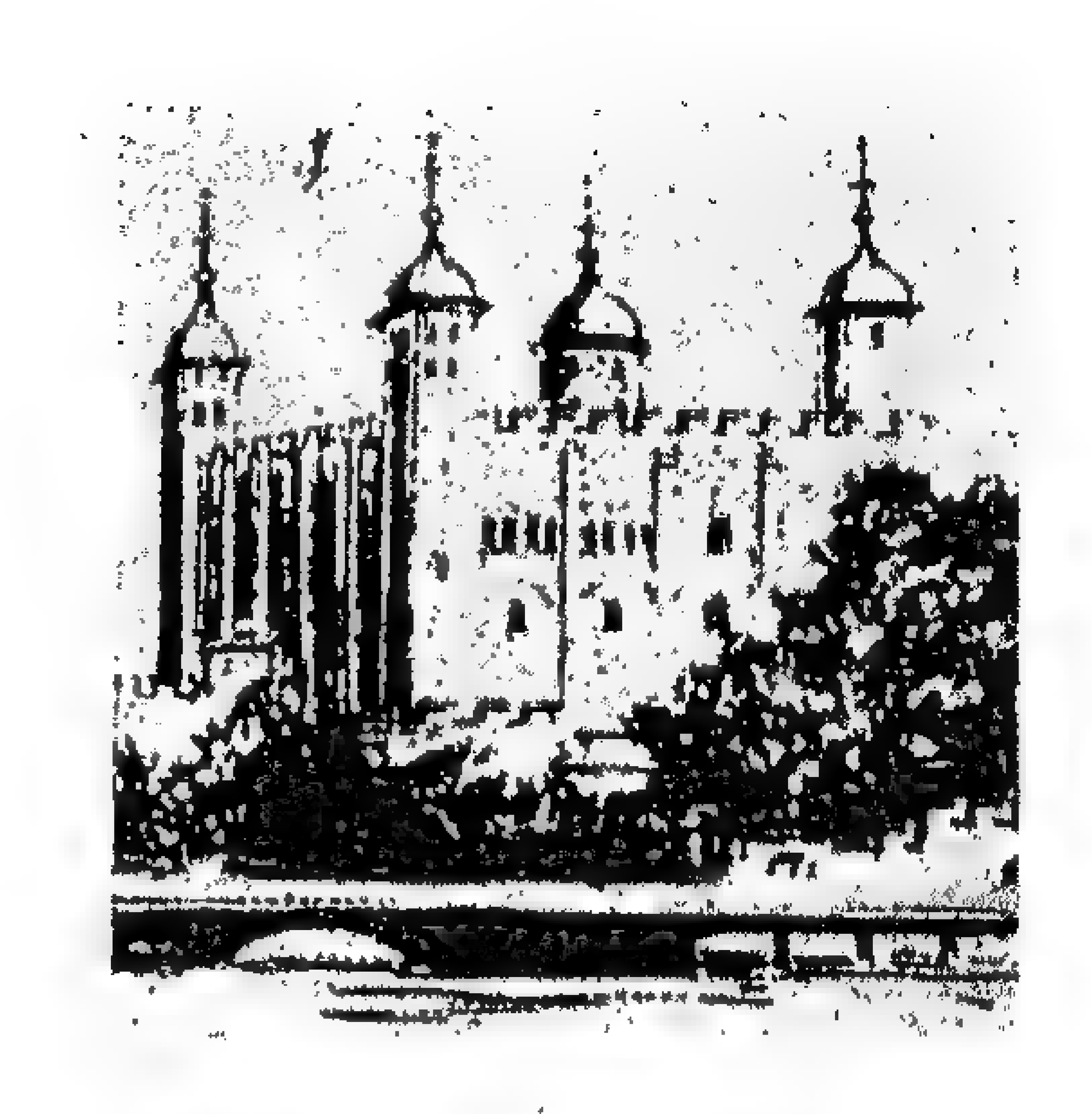


النيازك فى المتحف البريطانى...

والنيازك، شهب غير تامة الاحتراق، فحين يبرق أمام عينيك ضوء خاطف عبر السماء يجرّ ذيله وراءه لمسافات طويلة فذاك هو الشهاب. أما النيازك، فبعض تلك الأحجار السماوية التى لايتم احتراقها نتيجة احتكاكها بالجو، فتسقط على الأرض. ويقال فى مصدرها إنها قد تكون بقية من المادة الكونية لم تدخل فى تشكيل الأجرام السماوية، وقد تكون شظايا من كوكب انفجر فى فضاء الكون. وهى تبلغ الأرض بأحجام كبيرة (٦٠ طنًا أو تزيد). وهى تتميز بخلوها من الماء، وإن لها غشاء أسود أملس، وإن بها حفرًا لتطاير أجزاء من سطحها المنصهر، وإنها أخيرًا مخروطية الشكل زاوية الجوانب بغير انتظام..



تعتبر المتاحف فى لندن من أكبر العلامات الحضارية فيها، وهى أيضًا من أكبر مقومات الثقافة والتعليم بها. والمتحف الجيولوجى البريطانى يعد متميزًا بين متاحف العالم المتخصصة من حيث مجموعاته الفريدة والنادرة بحق، والتى يندر أن توجد فى مكان واحد، فبالمتحف عينات من كل معادن العالم وصخوره، وما أكثر وأشد تنوعها.. وكذلك بالمتحف تجسيد لكل الظواهر الفلكية والجيولوجية. فإن كانت زلزالاً، شعرت بالزلزلة القوية، وإن كانت بركانًا، روعت من شدة قذفه وثورانه، وظهرت أمامك الحمم (اللافا) جارفة.. وأمام بعض تلك المعادن والصخور، وقف المؤلف فاحصًا.



ملحقات برج لندن الشهير الذى يضم حاليا جواهر التاج كانت تستخدم كقصر، وسجن، وحديقة حيوانات ملكية.



فى حديقة الهايدبارك بلندن انطلاق واسع وحرية كاملة تتردد ما بين عرض الآراء السياسية والدينية وكل مما تفرزه أدفعة البشر فى الرؤية لمناحى الحياة.. إلى التصرفات التى تعتبر عند البعض غير سوية.. وتلك فتاة قد قصت شعرها بهذه الطريقة الغريبة حتى يمكنها لصق بعض الرسومات والشعارات التى تتبنّاها فى حماسها لواحدة من القضايا المثارة على أرض الهايدبارك. هل هو جنون؟ أم انطلاق بغير حدود؟ أم شدة إيمان بقضية؟!



صورة لفرسان العصور الوسطى وما كانوا يلْبسونه ويلبسونه لخيولهم من دروع من الصلب ينوء بحملها أولو القوة، ليدافعوا عن بلادهم ضد غزوات تستهدفهم من الشرق والغرب والشمال..

المسماة بالقوس الرخامي «ماربل آرش»، كانت هناك تجمعات عديدة وشتى من أناس قد التف بعض منهم حول متحدث أو خطيب. فهذا قِسٌّ يلقى موعظة دينية.. وذاك متحدث من أمريكا اللاتينية يشرح قضية نيكاراجوا والاعتداء الأمريكى، ويسب أمريكا بأقذع الألفاظ.. وكان هناك مجلات أرضية، وملصقات تعرض وجهات النظر. ولقد شدت ملامحنا الشرقية البعض ممن التفوا حول متحدث يعتلى مقعدًا ويصرخ بأعلى صوته.. فقدموا لنا

منشوراتهم. إنهم مجموعة فدائى خلق، المعارضة لحكم الآيات وعلى رأسهم آية الله روح الله الخومينى فى إيران. إن المتحدث يصرخ بأعلى صوته ليقول للناس كم من الإيرانيين قتلوا وكم عذبوا وسجنوا.. كل ذلك يدور دون تدخل من شرطة أو من معارضين.. لكل رأيه، ولكل قدرته فى استقطاب السامعين..

وأترك مؤتمرات الخطابة فى الهواء الطلق هذه، - والتى كان السير «ويليام راندل كريمر» الممنوح جائزة نوبل عام ١٩٠٣ أول الذين ابتدعوها -وأتعمق متجولاً فى الحديقة.. لأرى الناس تنطق وجوههم بالسعادة.. رجال ونساء فى مضمار الجرى بالملابس الرياضية، شباب وشابات فى مناجاة ومواقف غرامية.. كهول جلوس على الآرائك ينظرون فى تأمل ورضا.. ماذا أقول عن قوم يتناغمون فى السلوك ويتفقون فى المبادئ؟ أهى الثقافة التى تعنى رقى الفكر بالعلم والتجربة والخبرة والمعرفة، ورقى الوجدان بتشرب الفن والإشعاعات الروحية، بما يؤدى فى النهاية إلى رقى السلوك وحسن المعاملة ولطف المعشر.. ربما كان ذلك، فما أراه حقيقة يوحى بالانسجام الكامل، ويوحى بالفهم والتجانس.. ولا نشاذ على الإطلاق.. حب ورياضة وتأمل فى أوقات الفراغ.. وعمل جاد وصارم، ومتواصل ومبدع وخلّاق فى أوقات العمل، وما المؤتمر الذى حضرته ببعيد، وما الجهد الذى بُذل فيه بغائب عن ذهنى الآن.. لا اختلاط ولا تداخل.. كل شىء فى زمانه وفى مكانه..

كأنى بهم يعرفون الفضيلة، على أنها الارتفاع بالعقول إلى آفاق

أكبر وأوسع من مجرد علاقات جنسية بين ذكر وأنثى.. كأنما الفضيلة عندهم مزيد من العلم والمعرفة والحرية والعدالة والصدق فى المعاملة، وإنجاز الوعد والشجاعة الأدبية.. إلخ..

إننى أرى أننا مسرفون جدًّا فى بعض الأمور..
إننى أرى أننا مقترون جدًّا فى بعض الأمور..
وبين هذه الأمور وتلك، بون، بل أبوان شاسعة..

هل نكون بإسرافنا هذا وتقتيرنا.. نؤكد مقولة الشاعر «كبلنج» حين قال: «الشرق شرق والغرب غرب، والشرق والغرب لا يلتقيان..».

وأسفًا على ذلك لو حدث.. لأن الغرب هو حضارة اليوم.. وغدًا أيضًا..

وأنطلق متجولاً فى حديقة «الهايد بارك» الكبيرة والشهيرة.. لوحة رائعة اندمجت وانسجمت فيها الألوان المتعددة، ما بين خضرة فى الأشجار العالية، وعلى الأرض سندس مبسوط، وصفرة إلى حمرة تختلط بكل درجاتها وتعدداتها فى زهور خُطط لها هندسيًا، فجاء التخطيط وتعدد الألوان على قدر كبير من الجمال.. ورمادية تظلل إطار اللوحة فى السماء، يشع من بين ثناياها ضوء الشمس الظاهرة المختفية، فسبحان من أبدع هذا الجمال وصوره.. وبين الحين والحين، وعند هذا المنعطف أو ذاك، فى ظلال أشجار عالية عالية، وعلى أرضية من رخام لامع وأمام نافورة فوارة، يقوم تمثال من خلق البشر، ولكن

تبقى اللوحة الربانية أعظم وأجل.. فسبحان الله، وتبارك الله أحسن الخالقين..

وأمضى بين كل هذا الجمال، وعيني لا تشدها مناحيه المختلفة، وإنما هى مع العقل والخيال مشدودة إلى بلدى.. إلى وطنى.. إلى قاهرتى.. كم فيها من مثل تلك الحدائق؟ ألم تكن حديقة الأزبكية وبركتها.. كحديقة «الهايد بارك» وبركة «السربنتين» فيها؟.. كان.. ولكننا أكلناها، كما أكلنا أرضنا تمامًا.. تخيلوا أننى كنت أتطلع إلى كل بناء فى كل ما تجولت فيه من لندن إلى أدنبرة إلى جلاسجو إلى مدينة القديس أندروز، وأفحص قوالب الطوب فيه، ولم أجد منها أبدًا ما هو مصنوع من طمى أو طين التربة الزراعية.. المهم، خضرة وطرق مرصوفة، وأحواض زهور مصفوفة، وتماثيل ونوافير موضوعة، وبركة صناعية تقف فوق مياهها القوارب الميكانيكية لمن يرغب فى نزهة (سربنتينية) وحرية للجميع مكفولة بقدر كبير.. كل ذلك أتوقع أن أراه.. ولكن ما لم أتوقعه حقًا، هو وجود كتلة صخرية هائلة ضخمة، غير مشذبة ولا مهذبة، وإنما هى كما حطها الجليد من علٍ.. ولقد شدنى - بحكم المهنة - ذلك الجلمود، فذهبت إليه أستطلعه وأنا أتمتم بالبيت الشعرى المعروف، وأترحم على قائله.. إنه جلمود صخرى قد يبلغ وزنه أكثر من عشرين طنًا، قُدَّ من جبل جرانيتى، بعوامل طبيعية بحتة، كأن تتشقق الصخور باختلافات درجات الحرارة ما بين ليل ونهار، وأن تساقط تلك الكتل المشققة فى هامات الجبال، بفعل الجاذبية أو بفعل السيول أو بفعل الجليد..

.. واقتربت من تلك الكتلة الصخرية الهائلة، والقائمة على قاعدة



كتلة الجرانيت التى حطَّها السيل أو الجليد المنجرف من فوق قمم جبال بلاد النرويج بفعل العوامل الجوية الطبيعية والكميائية، والتى نقلت لتقام على قاعدة فى أكبر حديقة فى لندن - الهايدبارك - رمزًا للصداقة بين الشعبين النرويجى والإنجليزى.. والمؤلف إلى جوارها يتفحصها.

لا ترتفع عن سطح الأرض إلا بأقل من المتر، وطالعت ما هو مكتوب عليها.. إنه إهداء من دولة النرويج لشعب بريطانيا العظمى، جزاء ما وقفت الأخيرة بجانبها فى الحرب العالمية الثانية.. قطعة من صخر جبال النرويج جرفتها الثلاجات الزاحفة من قمة الجبل إلى سفحه، شعر الشعب النرويجى أنها يمكن أن تكون رسالة ورمز تقدير للشعب البريطانى، دون عناء من التشذيب أو التهذيب..

.. وأمضى فى الحديقة الكبيرة الواسعة، فيشد انتباهى أفواج الحمام المتجمعة من حول جالسٍ يطعمها.. والحمائم فى كل مكان وكل ميدان، آمنة على أنفسها مطمئنة هادئة.. من ميدان الطرف الأغر الشهير فى وسط لندن، إلى الميادين والشوارع الأخرى، إلى البلاد الأخرى أيضًا..

الجالس شيخ جاوز الستين من عمره، ملتح بلحية تساوت فيها الشعرات البيضاء بالشعرات السوداء عددًا.. يضع على رأسه غطاء غريبًا نوعًا ما، وبجانبه عصاته التى تبدو ثمينة قيمة، ولباسه يوحى بالعز والجاه، وبين يديه خبز يقطعه أجزاء صغيرة يلقى بها مرة يمينا ومرة إلى اليسار، فتندفع الحمامات لتلتقط ما يُلقى إليها قبل أن يبلغ الأرض.. واستهوانى ذاك المنظر، وكان قد نال منى التعب مناله، فقررت أن اتخذ لى مكانًا إلى جواره على الأريكة، فحييته بانحناءة من رأسى، فإذا به يقول لى.. وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. تبدو عربيًّا.. من أين أنت؟.. وجلست، وتحدثنا، وعرفته بنفسى، وعرّفنى أنه مالك سفن من باكستان، يأتى إلى لندن بين الحين والحين، وينتهز فرصة تواجده فيها، ليطعم حمائمها على هذا النحو.

قلت له: أهى الرحمة على الحيوان كما يقول الإسلام؟..

هز كتفيه وقال: نعم.. قد يكون كما يقول الإسلام وليس المسلمون.. فالإسلام دين عظيم ولكننا ما عدنا نستحق شرف الانتساب إليه أبدًا..

إننا مسرفون فى التواكل على ديننا، بينما كان العكس هو

الواجب والحتم.. كان الواجب أن نكون أقوياء كما أراد لنا ديننا.. والمسلمون إنما هم فيما هم فيه بإرادتهم وجزاء صنيعهم فى أنفسهم.. وانظر، ماذا ترى؟ إنها حلقة جهنمية تستكمل حصارها حول أطراف العالم الإسلامى، ولكننى أقول: إنهم هم الجانون على أنفسهم.. فلا رقى فى الفكر بالعلم والخبرة والتجربة.. ولا رقى فى الوجدان، والوجدان هو الدين وهو الأخلاق الفاعلة لا الكامنة، لا يجب أن يكون الدين ضميرًا مضمرًا، ولكن يجب أن يكون حياة وسلوكًا.. ولو أننا أخذنا بالأسباب لبلغنا الغايات، ولكننى أقولها: إننا لا نريد.. ولا أقول: إننا لا نستطيع..

رقم الإيداع		١٩٨٩ / ٨٨٢٨
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٢٨١٠-٩	ISBN

١ / ٨٨ / ٥١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



بهذا الفعل الجميل (اقرأ) : تدعوك دار المعارف إلى قراءة تراث هذه السلسلة العريقة .. بأقلام كبار كتابنا .. لتعيش معهم .. كما عاش الآباء والأجداد .. وتكوِّن فى مكتبتك موسوعةً متفرقة فى فروع المعرفة المختلفة .

وإيمانًا منا بأن القراءة هى أقصر الطرق إلى الوعى والثقافة .. فقد يسَّرنا لك ذلك فى إخراج جيد .. وسعر زهيد .

